

الغريم في بلاد الشام

في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين

د. عبد الكريم اليافي

تتقدم بين يدي هذا البحث توطئان وجيزتان :

• الأولى توضح ما يراد ببلاد الشام وسكانها

والثانية ترسم الاطار الزمني السياسي الذي جرى فيه التعليم أي تبرز تسلسل السلاطين العثمانيين ومحاولات اصلاحهم له

ويضم معظم البحث أساليب التعليم ومدارسه فينقسم أربع مراحل واسعة :

- ١ - ما قبل التنظيمات
- ٢ - ما بعد التنظيمات
- ٣ - ما بعد الدستور
- ٤ - صروف الحرب وما بعدها

ويلتحق بهذا الموضوع اشارات خاطفة الى الأحوال العامة التي خاضت بلاد الشام وبعض العوادي الطبيعية التي ألمت بها

وكذلك يتصل به ما قام الى جانب شؤون التعليم ووراء المدارس من جماعات خيرية تتعهدا ، ومن مطابع تحل بالتدريج محل الأنامل التي كانت تتعب في نسخ المتون والشروح والحواشي ، ومن مكتبات عامة وأهلية تضم الكتب المخطوطة والمطبوعة ، ومن أعلام ظهوروا في سماء تلك الحقبة الطويلة كالنجوم وانما هم ثمرات ذلك التعليم

وتأتي الخاتمة لتحكم على حصيلة تلك المراحل ، ولتتفاءل على الرغم من تجزئة بلاد الشام بعد أن كانت واحدة ، فتنوه بتقديم دولها الناشئة وبتضامنها الأخوي وباستشرافها حياة انسانية سليمة وكريمة وراقية .

هذا ولا يمكن لهذا البحث أن يستقصى تفاصيل الموضوع الواسع وفروعه لتطاول الحقبة التي يعالجها وتشتت المراجع التي تمسه . فلا بد من الاقتصار على الملامح العامة والاتجاهات الهامة والاشارات البارزة الموهية .

ولعل في القليل الواضح المحكم ما يغني عن الكثير المختلط المبهم .

والله المستعان في كل شأن .

□ توطئة أولى :

جاء في « معجم البلدان » لياقوت الحموي الذي أنهى تأليفه في عام ٦٢٥ هـ = ١٢٢٨ م في مادة الشام بسكون الهمزة وبفتحتها وبغير همز أي بالألف اللينة وبالهمزة الممدودة أن حد الشام « من الفرات الى العريش المتاخم للديار المصرية . وأما عرضها فمن جبَلِي طيء (أجأ وسلمى) من نحو القبلة الى بحر الروم (البحر المتوسط) وبها من أمهات المدن منبج وحلب وحماة وحمص ودمشق والبيت المقدس والمصرة . وفي الساحل أنطاكية وطرابلس وعكا وصور وعسقلان وغير ذلك . وهي خمسة أجناد: جند قنسرين وجند دمشق وجند الأردن وجند فلسطين وجند حمص ويُعد في الشام أيضاً الثغور وهي المصيصة وطرسوس وأذنة وأنطاكية وجميع العواصم من مرعش والحدث وبغراس والبلقاء وغير ذلك » . ويراد في النص بالأجناد التقسيمات الادارية الخمسة التي سبق ذكرها . واللفظ جمع جند يطلق على المدينة وعلى تجمع القرى . وقد خصه أبو عبيدة بن الجراح بمدن الشام . ويراد بالعواصم حصون موانع وولاية تحيط بها بين حلب وانطاكية سميت كذلك لأن المسلمين كانوا يعتصمون بها فتعصمهم وتمنعهم من العدو اذا انصرفوا من غزوهم وخرجوا من الثغور .

وفي مادة سورية من معجم البلدان أيضاً « أن الروم لما هُزموا في وقعة اليرموك وجاء خبر هزيمتهم هرقل وكان بأنطاكية خرج يريد القسطنطينية وصعد على نشز وقال: سلام عليك يا سورية سلام مودع لا يرجو أن يرجع اليك أبداً . ثم

قال : ويحك أرضاً ! ما أنفعَكَ أرضاً ... لكثرة ما فيك من العشب والخصب ثم انه مضى الى القسطنطينية » .

وهكذا نجد منذ القديم أن الشام أوسورية (نستعمل اللفظين مترادفين) بلاد واسعة تمتد من جبال طوروس شمالاً الى سيناء وخليج العقبة والعريش جنوباً ومن البحر المتوسط غرباً الى الفرات وآخر بادية الشام شرقاً وتشمل الثغور الشمالية التي وردت أسماؤها آنفاً .

وسكان هذه البلاد منذ القديم يتألفون في غالبيتهم العظمى من قبائل عربية . أشار الى ذلك مؤلفون وشعراء كثر حسبنا هنا أبيات قالها أحمد بن المدير الكاتب وذكرها معجم البلدان هذه بعض أبياتها :

وكم بالشام من شرف وفضل	ومرتقب لدى برّ وبحر
بلاد باريك الرحمن فيها	فقد سهها على علم وخبير
بها غرر القبائل من معدّ	وقحطان ومن سروات فهر
أناس يكرمون الجار حتى	يجير عليهم من كل وتر

□ توطئة ثانية :

هَلَّ القرن التاسع عشر وسورية ولاية في الدولة العثمانية والسلطان العثماني هو سليم الثالث (١٧٨٩ - ١٨٠٧) تولى الحكم في السنة التي اشتعلت فيها الثورة الفرنسية وكانت التربية والتعليم شأنهما في سورية كشأنهما في الدولة العثمانية . ومن المناسب أن نقول : ان العثمانيين لما أنشؤوا دولتهم كانوا متأثرين بآباط الحياة الثقافية الاسلامية وبجوها المختلفة . فهم وان برزوا على الصعيد العسكري اذ ذاك كانوا مندمجين في أصول التربية والتعليم الاسلاميين . ولذلك لم يفرض العثمانيون أول الأمر على الولايات الجديدة التي دخلت في حوزتهم تنظيمات جديدة بل كانوا يكتفون بالسيطرة عليها عسكرياً وسياسياً ويدعون لشعوبها تنظيماتهم ولا سيما أن هذه التنظيمات في سورية موازية للتنظيمات التي في بلادهم . بل كانوا يستقدمون العلماء المسلمين الى بلادهم ليستفيدوا منهم في الأمور الشرعية . ولما استولى السلطان سليم على سورية (عام ١٥١٦) ثم على مصر (١٥١٧) قدم عليه العلماء ليهنئوه بالفتوح اذ خلس البلاد

من ظلم المماليك . ومنذ ذلك الوقت ارتبط سكان سورية بالعثمانيين وكانت رابطة الدين هي العروة الوثقى التي تجمع بينهم .

وبدأ الافتراق والكراهية ينتشران بين الترك والعرب في غضون القرن التاسع عشر لأسباب مختلفة ، أبرزها انتشار الفساد في سائر أنحاء الدولة وتغلغل التأثيرات الأجنبية الغربية في البلاد بين ظهراني الترك وبين ظهراني العرب ولا سيما تسرب النظريات والأفكار القومية وتعرض البلاد جميعها لنكسات وفتن خارجية وداخلية وسرعة سير الدولة في طريق التداعي والانحيار . ومن الطبيعي أن تتعرض شؤون التربية والتعليم في سورية للصروف السياسية والاجتماعية التي كانت تعصف بتلك الدولة . ولهذا لا بد من عرض هذه الصروف موجزة كي نتبين فيما بعد على صعيدها أحوال التعليم والتربية .

جرت محاولات في مستهل القرن التاسع عشر لاصلاح أحوال البلاد الداخلية كي تتماسك تلقاء الأخطار العديدة التي تتهددها داخلياً وخارجياً . وقد أراد السلطان سليم الثالث أن يعيد بناء الدولة على أسس غربية وأن يؤلف جيشاً جديداً حسب أحدث النظم الفرنسية فأنشأ وحدات عسكرية حديثة عُرِفَت بالنظام الجديد وعمد الى انشاء المدارس وجعل اللغة الفرنسية اجبارية فيها وأرسل بعض البعثات وطفقت المدارس العسكرية والبحرية التي أنشئت تخرج ضباطاً مدربين على الطراز الغربي . ولكن هذه الاصلاحات أثارت عليه نقمة الجيش القديم المؤلف من الانكشارية فأطاحوا به وأبطلوا اصلاحاته . وبويع ابن عمه مصطفى الرابع بن عبد الحميد الأول في أيار عام ١٨٠٧ . ولكن لم يطل حكمه اذ خلع في السنة التالية عام ١٨٠٨ . ونصب أخوه محمود الثاني (١٨٠٨ - ١٨٣٩) وقدّر له أن يحكم مدة أطول . وفي عهده بدأت المرحلة الثانية من الاصلاحات فقد قضى على الجند القديم وأباد الانكشارية عام ١٨٢٦ وأسس نظاماً جديداً سماه العساكر المحمدية المنصورة . ومن أهم أعماله افتتاحه مدارس ابتدائية رُشدية في المملكة عام ١٨٣٨ . ومن الاجراءات الهامة التي اتخذها انشاء مديرية خاصة لتنظيم أمور الأوقاف التي كانت تشرف على التعليم الديني . وفي أيامه استولى ابراهيم باشا بن محمد علي على بلاد الشام عام ١٨٣١ وبقي فيها نائباً عن والده حتى نهاية ١٨٤٠ حين اضطر الى

التخلي عن الحكم والجلاء عن سورية بنتيجة ضغط الدول الأوروبية • وقد
امتاز عهده بالتسامح وبوادر الوعي بالقومية العربية •

توفي السلطان محمود عام ١٨٣٩ وخلفه ابنه السلطان عبد المجيد قبدأ عهداً
جديداً دعي بالتنظيمات الخيرية وأعلن ما اشتهر بفرمان الكلخانة عام ١٨٣٩ اذ
قرىء في قصر الكلخانة (قصر الورد) • وفي هذا المرسوم تنبيه على حرية الأديان
وعلى المساواة بين رعايا الدولة من أي دين ومذهب في تبوؤ المناصب بحيث
« يكون استخدامهم في المأموريات بالتطبيق للنظامات المرعية الاجراء في حق العموم
بحسب استعدادهم وأهليتهم • واذا قاموا باستيفاء الشروط المقررة بالنظامات
الحكومية المختصة بالمكاتب التابعة لسلطنتنا السنّية بالنسبة للسن
والامتحانات يكون قبولهم في مدارسنا الملكية (المدنية) والعسكرية بلا تمييز
بينهم وبين المسلمين • وعدا ذلك فان كل طائفة مأذونة باعداد مكاتب (مدارس)
أهلية للمعارف والحرف والصنائع • انما طرق التدريس وانتخاب المعلمين يكون
تحت ملاحظة مجلس المعارف المختلط المعينة أعضاؤه من طرفنا الحكومي
(تاريخ الدولة العلية ص ٤٨٦) •

ولم تؤد هذه الاصلاحات الى تحسين الأحوال المتدهورة في الدولة
وأصدر السلطان مرسوماً آخر عرف باسم مرسوم التنظيمات الخيرية وهو الخط
الهامايوني أي السلطاني عام ١٨٥٦ • وتوفي عام ١٨٦١ • وبويع أخوه
عبد العزيز • وسارت الدولة الكبيرة في عهده نحو التجزئة والافلاس • فخلع
وبويع السلطان مراد الخامس بن عبد المجيد • وظهرت أمارات الاضطراب
العصبي عليه فخلع في السنة نفسها • امتد حكمه ثلاثة وتسعين يوماً • وبويع أخوه
عبد الحميد الثاني • كانت جهود رجال التنظيمات تصطدم بعقبات كثيرة من
أهمها استبداد السلاطين وفساد رجال الحاشية فرأوا أن الأحوال لن تستقيم
الا باصدار قانون أساسي ينص أن السلطة ليست مطلقة بل هي مشروطة
بقيود يقرها الدستور • هذا وقد سمي الأتراك الدستور بالقانون الأساسي
واصطلحوا على تسمية العهد الدستوري عهد المشروطية • ومن أبرز رجال
الاصلاح مدحت باشا الذي استطاع مع زملائه أن يحمل السلطان عبد الحميد على
اصدار القانون الأساسي عام ١٨٧٧ ولكن لم يكن اعلانه الا ومضة ، اذ لم تكد تجري

الانتخابات ويجتمع مجلس المبعوثان أي مجلس النواب حتى صدرت ارادة السلطان السنية بفضه . وعندئذ ابتليت البلاد بطور استبداد لم تعهد نظيره حتى في العصور المظلمة ، وان كان قد شجع السلطان الدراسات الدينية فانتعشت بعض الشيء . وقد استمرت المطالبة باعادة الدستور حتى اضطر السلطان الى اعلان المشروطة الثانية أي اعادة الدستور واجراء الانتخابات . ولكن لم يرق ذلك للقوى الرجعية فثارت عام ١٩٠٩ وأفضت الى خلع السلطان عبد الحميد واجلاس محمد رشاد الخامس على العرش . ولكن توطدت المشروطة الثانية وتوطد معها أركان العهد الجديد . وكانت السلطة من ورائه لجمعية الاتحاد والترقي ذات النزعة الطورانية . وحدثت خلال السنوات الست التي مضت على المشروطة الثانية اضطرابات وثورات أكثرها ذات صفة قومية . وقد شهد هذا السلطان قيام أول تنظيم عربي معارض لسياسة الدولة في باريس (١٨/٦/١٩١٣) قابلته الدولة على يد قائد الجيش الرابع بمجزرة في ٢١/٨/١٩١٥ ثم بمجزرة ثانية ٦/٥/١٩١٦ فتوسعت الهوة بين القوميتين العربية والتركية . هذا ويصح على العثمانيين في أيام انهيارهم ما يصح على الفرد في أيام نكبته وهو قول الشاعر :

يقضى على المرء في أيام محنته حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن

ونشبت الحرب العالمية الأولى في عهد هذا السلطان (١٩١٤ - ١٩١٨) وقد مات قبل استسلام الدولة لأعدائها عام ١٩١٨ .

أساليب التعليم في إبان القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين

□ ما قبل التنظيمات :

تنحصر أساليب التعليم أثناء هذا العهد في ثلاثة أشكال وهي :

- ١ - الكتابيب .
- ٢ - حلقات العلوم الشرعية .
- ٣ - المدارس الوقفية والأهلية .

أما الكتابيب فقد بقيت قائمة حتى حوالي عام ١٩٢٥ ، وأما حلقات العلوم الشرعية والمدارس الوقفية والأهلية فما زالت جارية منذ القديم حتى عصرنا الحاضر .

□ الكتاتيب :

أسلوب التعليم هذا قديم • ولما استولت الدولة العثمانية على بلاد الشام لم تمس هذا الأسلوب • ويدعى الكتاب بالتركية « محله مكتبي » أي مكتب المحلة • تبدأ دراسة الأولاد الصغار فيه في سن مبكرة • ويطلق على المعلم لفظ الشيخ أو شيخ الكتاب وعلى المعلمة الشيخة وصار يطلق عليه أيضاً لفظ خوجه وملاً • وهما لفظان فارسيان تركيان • ويكون الشيخ في الغالب امام المسجد وأحياناً خطيبه • والمكان احدى زوايا المسجد أو بيت الشيخ ومصلاته وبيت الشيخة • بعض الكتاتيب كانت مختلطة لأن التلاميذ كانوا صغار السن صبياناً وبنات • ولا غرو أن يكون صاحب الكتاب «شيخاً» أو «شيخة» • وكانت حجرة الدراسة في البيت غرفة صغيرة أو واسعة تضم من عشرة تلاميذ الى ما يقرب من مائة أو أكثر من ذلك أحياناً • وكانوا يجلسون على حصير أو بساط ممدود على الأرض من الصباح الى الأصيل أو ما بعد العصر • وقد يذهب التلميذ الى بيته للغداء أو يكون قد جاء ب زاد معه يطعمه عند الظهر (مزادة ، سفرطاس ، مطبقية) • ويتعلم الطالب فيه الأبجدية والكتابة والقراءة ولا سيما قراءة القرآن مقسماً الى أجزاء المعروفة يبدؤون بتعلم فاتحة الكتاب ثم الجزء الثلاثين ثم التاسع والعشرين وهكذا • وتكون الأجزاء الأربعة الأخيرة منفردة (عم ، وتبارك ، وقد سمع ، والذاريات) حتى اذا أتمها التلميذ اقتنى مصحفاً وتابع القراءة حتى سورة البقرة . ومتى ختم التلميذ قراءة القرآن كله جرى له احتفال خاص يتناسب مع أحوال أهل المادية • ولهذا الاحتفال تقليد مرسوم يشارك فيه سائر التلاميذ • يقرأ التلميذ الخاتم في الصباح على الشيخ ربعاً يختاره الشيخ من القرآن • ثم يخرجون جميعاً أرتالا منظمة ثنائية أو ثلاثية ويطوفون بالتلميذ الخاتم مغنين بعض الأناشيد والترانيم حتى ينتهوا الى بيته • ويتلقون بعض الهدايا من أهله • ويتعلم التلميذ الى جانب القراءة والكتابة مبادئ الحساب • وهو يتألف من الأعمال الحسابية الأربعة أي الجمع والطرح والضرب والقسمة • وقد يتعلمون أيضاً حساب الجذر التربيعي والتكعيبي والتقسيم التناسبي ، كما يتعلمون حسن الخط الذي امتازت به الكتابة العربية وأنواعه المختلفة من خط رقعي ونسخي وثلاثي وكوفي وديواني وفارسي •

وقد يتخرج التلميذ في هذا الكتاب أو ينتقل الى كتاب آخر أعلى منه يتعلم فيه مبادئ النحو والصرف والفقه والتوحيد وعلم الفرائض ومصطلح الحديث وتفسير القرآن وما الى ذلك من علوم دينية .

ويتقاضى الشيخ عادة أجراً أسبوعياً بسيطاً يقبضه كل يوم خميس . ولهذا دعي هذا الأجر بالخميسية . ويقدم بعض التلاميذ هدايا للشيخ هي على الغالب سلع عينية من طعام أو لباس حسب أحوال أهليهم المادية . كذلك يقدم الأهل له هدايا بسيطة مالية أو غيرها عند ختم التلميذ قراءة القرآن في الاحتفال الذي أشرنا اليه آنفاً .

هذا في المدن حيث يبدأ التلميذ بالذهاب الى الكتاب وهو في الرابعة من عمره في مختلف فصول السنة . أما في الريف فالكتاب أبسط من ذلك ويشرع الولد بالذهاب اليه أكبر سناً حين يكون في السادسة أو السابعة أو الثامنة . والتدريس في الريف يستمر في فصل الشتاء حين لا يحتاج الأهل الى أولادهم في الأعمال الزراعية حتى اذا حانت هذه الأعمال في الربيع والصيف والخريف ساعد الأولاد أهليهم في أعمال الفلاحة والزراعة وجني الغلات والمحاصيل .

وكان التلاميذ في الكتاتيب يُعلّم بعضهم بعضاً ، يعلم كبارهم صغارهم ، ويعرضون على الشيخ مراحل هذا التعليم يوماً فيوماً أو أسبوعاً فأسبوعاً . ويكون في الكتاب عريف وهو أكبر التلاميذ وأمهرهم ، أو عرفاء يشرفون على بقية التلاميذ تحت رعاية الشيخ . هذا في الكتاتيب الكبيرة الواسعة . والتلاميذ يجلسون عادة على جوانب الغرفة أو الردهة ويسندون ظهورهم الى الجدران وأمامهم التلاميذ الصغار يدرسونهم في « حَرْفِيَّاتِهِمْ » . والدراسة تكون عادة بصوت مرتفع ويهز القارئ جسمه الى الأمام والى الخلف وهو قاعد عند القراءة . والحرفية هي الدفتر الصغير الذي يضم أصول كتابة الحروف العربية ومبادئ القراءة . والحرفيات في الأصل يكتبها الشيخ بخطه الجميل . ثم دخلت الحرفيات المطبوعة الكتاتيب فكانت عهداً جديداً من أطوار التعليم في الكتاتيب .

هذا وقد ظلت للكتاتيب مكانتها التعليمية في بلاد الشام حتى نهاية الحرب العالمية الأولى حين غدت المدارس النظامية تنتشر ثم تتوسع . ولما حل عام ١٩٢٥

صدرت قوانين تنظيم التعليم الخاص فتحول بعضها الى مدارس ابتدائية خاصة واطمحل بعضها الآخر .

والى جانب تعليم مبادئ القراءة والحساب وتجويد الخط وغيره كان بعض الشيوخ يعلمون فن تجويد القرآن ونصيباً من القراءات السبع المتواترة . ذلك أن هؤلاء الشيوخ كانوا في الغالب من حفظة القرآن يحسنون تلاوته باتقان وتجويد فيعلمون التلاميذ المتقدمين أحكام التجويد من اظهار وادغام واخفاء وأحكام النون الساكنة والتنوين وأحكام الميم الساكنة وأنواع المد ومخارج الحروف وقسميها شمسياً وقمرياً . ولهذا كانت الكتابيب تتفاوت شهرتها بتفاوت شهرة شيوخها وتخصصهم ، فيقصدها الآباء بأبنائهم طلباً لناحية علمية بعينها كحسن الخط أو تلاوة القرآن وحفظه أو حفظ الحديث وروايته أو الميول الأدبية كتحفيظ بعض القصائد المشهورة من المعلقة ولامية العرب ولامية العجم ، أو المهارة في الحساب ، وتحويل أصناف العملة أو النقد بعضها الى بعض ، وأحياناً حساب الجُمَّل والتأريخ به ، وتعليم بحور الشعر وعلم القافية .

التعليم على وجه العموم مفروض فيه أن يكون بالمجان وهو كذلك في الغالب لأن بذل العلم والتعلم كلاهما فريضة في الاسلام . ولكنه في الدرجة الأولى ذو أجر بسيط لأنه يجمع مختلف التلاميذ في أعمار صغيرة في غرفة المسجد أو بيت الشيخ ، ولا بد من بعض التعويض من قبل التلاميذ الموسرين ومتوسطي الحال . على أنه اذا كانت انتهت قصة الكتابيب فان حلقات العلوم الشرعية ما زالت باقية .

□ حلقات العلوم الشرعية :

ان المتفوقين من هؤلاء التلاميذ يكونون قد تذوقوا حلاوة العلم والأدب فلا يقفون عند هذا التحصيل الأولي . انهم قد غدوا يافعين وشباباً فهم ينتقلون الى الحياة العملية يلتمسون أسباب الرزق وهم يرغبون في استزادة التعلم والنهل من موارد العلم المشرعة الزاخرة . وما عليهم الا أن يقصدوا المساجد والجوامع ويشهدوا حلقات الدروس التي تعقد فيها . وهذه أمور يسيرة لأن حلقات الدروس تلك تعقد في غرف ملحقة بالمساجد مفروشة بالحُصر والبُسط وتابعة

للأوقاف التي تمدها بالصيانة والحاجات الضرورية البسيطة ، أو يجري التدريس في زاوية منعزلة من زوايا المسجد • لأنه على الأكثر يكون لكل شيخ غرفة يتولاها ويلقي دروسه فيها • وأوقات الدروس على الغالب في المساء بين صلاة المغرب وصلاة العشاء وأحياناً بعد صلاة العشاء ، وفي الصباح بعد صلاة الصبح الى وقت الضحى • ويتناول التدريس علوم الآلات (كالنحو والصرف والبلاغة واللغة والشعر والمنطق) وعلم الفقه وأصوله وتفسير القرآن ومصطلح الحديث والتوحيد والفرائض وما الى ذلك من علوم شرعية • وقد يكون لبعض المشايخ اطلاع على علوم نادرة اذ ذاك كالفلسفة وعلم الهيئة والطب القديم فيُدْرَس هؤلاء مبادئها •

وغالباً ما يعتمد الشيخ متناً مؤلفاً في تلك العلوم يطلب الى طلابه نسخه أو شراء نسخة مطبوعة بعد انتشار الكتب المطبوعة • وهو يجلس في غرفته ويتحلق الطلاب حوله فيقرأ لهم نص المتن بالتدرج ويشرحه • وفي الغالب يكون حافظاً له ومطلعاً على شروحه وحواشيه •

وقد يُدْرَس الشيخ فَوْجَيْنِ في اليوم • وقد يدرّس متنين أو شرحين في علمين مختلفين أو أكثر • ومدة الدرس الواحد ساعة أو أكثر بحسب ما يتطلبه الموضوع أو النص المدروس • وحياة الشيخ الفكرية منصرفه أكثر أنائها الى التعليم • واذا كان فقيهاً فالى الافتاء في منازعات الناس العادية زيادة على التعليم •

وقد تعقد هذه الحلقات في المنازل اذا كان عند الشيخ متسع في بيته • وعندئذ يقع التدريس أحياناً بعد صلاة العصر في البيت أو بعد صلاة العشاء •

ولهذا النوع من التدريس تقليد وهو اذا انتهى الشيخ من تدريس كتاب أو قراءة متن من المتون وشرحه تبرع الطلاب كل حسب سعته بمبلغ قليل من المال ينفق جملته في حفلة يدعى اليها الشيخ وزملاؤه شيوخ الحلقات الأخرى والتلاميذ الذين أنهوا دراسة الكتاب • وتكون الحفلة إما في البيت شتاءً وإما في إحدى الرياض والبساتين صيفاً • وقد تقام في منزل أحد الطلاب •

وحلقات المساجد والبيوت كلها مجانية وذلك ابتغاء الثواب من عند الله ، يحضرها من يشاء • ولكن لكل حلقة طلاب راغبون في دراسة كتاب أو علم يتابعون حضورهم • ويكونون مع الشيخ كأنهم أعضاء أسرة واحدة يشاركونهم في أفراحهم ويسأل عنهم ان غابوا ويعود مريضهم عند المرض • وتسود بينهم علاقات ودية سامية • وقد تتخلل هذه العلاقات فكاهات مهذبة ونوادر تعليمية يرويها بعضهم عن بعض •

□ المدارس الوقفية والأهلية :

وإذا كان بعض الحلقات رسمياً أو تركزي في بناء أو مدرسة مُسماة تشرف عليها إدارة الأوقاف أو جمعية خيرية أهلية كانت لها في آخر السنة امتحانات يؤديها المداومون بانتظام • والمسجلون في عداد الطلبة يؤجل سوقهم الى الخدمة العسكرية، ثم يعفون منها نهائياً إذا ثبت نبوغهم وغدوا مدرّسين في علومهم التي نبغوا فيها • هذا وقد خصص الأتراك اسم « المدرسة » للمدارس الدينية • وأما المدارس الأخرى الحديثة التي أنشئوها بعد حين فسموها « المكاتب » بوجه عام •

ولا يزال لهذا النمط من التعليم الديني آثار حتى اليوم إما في بيوت الشيوخ وفي بعض المساجد وإما في المدارس الشرعية المتخصصة بتلك العلوم • ويتخرج فيها أئمة المساجد وخطبائها والأساتذة الذين يعملون ويدرسون في هذا السبيل • وقد أنشئت أخيراً كلية لتدريس الشريعة في دمشق •

لهذا التعليم على أساس الحلقات مزايا إذا كان الحضور فيها والمداومة عليه بمحض الرغبة والاختيار • فهي تصطفي الموهوبين الذين فطروا على محبة العلم وعلى حظٍّ كبير من الاستعداد لتلقيه والتبريز فيه • كلٌّ يجري وراء موهبته وميوله واستعداده • ولكن كثيراً من الطلبة أيضاً كانوا يحضرون الحلقات تبركاً وطلباً للثواب ولكي يتشرفوا بطلب العلم لأن العلم وطلبه أشرف الغايات وأعلى المآرب واللبنات ولأن العلماء في الحضارة العربية الإسلامية ورثة الأنبياء . ومن مزايا ذلك التعليم أنه حَفِظَ قسماً مهماً من التراث وهو علوم الآلات (كالفلة والنحو والصرف والبلاغة والعروض) والعلوم الشرعية (كالفقه وأصوله وعلم التفسير ومصطلح الحديث) • فبقي في الحضارة العربية اتصال بين الماضي

والحاضر واتصال بين أجزاء الوطن العربي كلها . فكانت هذه العلوم متقاربة لأنها مستندة الى متون واحدة وكتب واحدة تقريباً ، وكانت هنالك هجرة علمية بين البلاد لطلب العلم ، وكان الأزهر في القاهرة موطن تلك العلوم ومنتجعها فكان الطلاب أحياناً يقصدونه لاستكمال الدراسة وللتبحر في هذه العلوم .

وكل نظام فلا بد من أن يكون له عيوب وأن يطرأ عليه خلل . وربما أُرِبت العيوب على المزايا في بعض الأحيان واتسع الغلل . وذلك أن التعليم كان يعتمد تلك المتون والحواشي التي أشرنا اليها ويسعى الى تفهّمها والى تحفيظ المتون دون الخروج عن حدودها ودون استلهاهم روح التأليف في تلك الكتب . فلقد كان النحوي مثلاً يحفظ ألفية ابن مالك ويفهم شروحها وما تحويه من قواعد ويقراً الكافية والشافية لابن الحاجب وشدورالذهب ومغني اللبيب لابن هشام وشروح تلخيص المفتاح في البلاغة ثم لا يقوى على تدبيج مقالة أو تحرير خطاب بليغ . وفي الفقه كان قد أغلق باب الاجتهاد فلم يبق بين يدي الخلف الا اعادة أقوال السلف واجترارها . يضاف الى ذلك كله أن هذا التعليم قد غابت عنه تماماً العلوم العقلية كالطبيعيات والرياضيات والعلوم الهندسية والتطبيقية التي ازدهرت في البلاد الغربية بعد أن اقتبس أهلها مبادئها من الحضارة العربية الاسلامية في عصر النهضة الأوروبية . ولذلك لم يكن بد من تحديث التعليم فهو عماد الدول بعد أن تعرضت الدولة العثمانية والولايات التابعة لها لنكسات عسكرية خارجية ولِفِتن داخلية ولا سيما بعد اطلاق الحكام والسلاطين والمسؤولين على أحوال الغرب وعلى الحوادث الكبرى التي جرت فيه وبخاصة نشوب الثورة الفرنسية ونتائجها التحريرية والفكرية والعسكرية .

□ ما بعد التنظيمات :

لقد اشتد الاحتكاك بمختلف الصوريين الدولة العثمانية والغرب منذ أول القرن التاسع عشر . فنبّه هذا الاحتكاك الى ضعف الأحوال الاجتماعية والعلمية والعسكرية في الدولة وجعل السلاطين والمسؤولين فيها يدركون أهمية اقتباس النظم الحديثة والعلوم العصرية . وقد رأينا كيف حاول السلطان سليم اعادة بناء الدولة لكنه لم يتيسر له ذلك . ولكن خلفه السلطان محمود الثاني سار شوطاً

في هذا السبيل . وقد أثر رجال الحكم اذ ذاك أن يتركوا المعاهد والمدارس وأساليب التعليم القديمة على شأنها وأن ينشئوا معاهد ومدارس جديدة لتدريس العلوم العقلية الحديثة . وقام اصلاح التعليم في البلاد العثمانية على هذا الأساس وهو انشاء مدارس جديدة مستقلة عن المدارس القديمة .

وأول ما شعر رجال الحكم بضرورته جاء بطريق النكسات العسكرية والهزائم التي مُني بها الجيش العثماني وهو الذي امتاز في العهود السابقة بقوة شكيمة واتساع سيطرته في مختلف الأرجاء الأوروبية . فحمل هذا الاخفاق الجديد على الاهتمام أول الأمر بتأسيس المدارس العسكرية . وتعليم الفنون الحربية فيها . ولكن هذا التعليم لا بد من أن يستند الى العلوم الرياضية والطبيعية والميكانيك والى شيء من المعلومات التاريخية والجغرافية . ولهذا أدخلت المدارس العسكرية هذه العلوم في برامجها . ثم ان هذه المدارس كانت أول الأمر متخصصة وعالية وأقيمت في عاصمة الدولة ثم شعر رجال الحكم والمشرّفون على التعليم لزوم الاعداد لهذه المدارس وتزويد الطلاب قبل انتسابهم اليها بمبادئ تلك العلوم فأنشئوا المدارس الاعدادية العسكرية . ولما كانت هذه العلوم متقدمة وواسعة الميادين ولا تكفي تلك المدارس الاعدادية في تأهيل الطلاب لتلقيها عمدوا الى انشاء مدارس رشدية عسكرية (أي ابتدائية عالية) تهيئ الطلاب لتلك المدارس الاعدادية . فجرى الاصلاح من الأعلى الى الأدنى وصار الطالب يبدأ دراسته في المدارس الرشدية العسكرية وينتقل منها الى المدارس الاعدادية ثم يعلّى الى المدارس العسكرية الاختصاصية على اختلاف أنواعها بحرية ومدفعية وهندسية وطبية ولكنها كلها عسكرية .

واذا كانت هذه المدارس الاختصاصية العالية قد أنشئت بطبيعة الحال في العاصمة فان المدارس العسكرية اعدادية ورشدية قد وزعت على الولايات . ومن أتم دراسته في المدرستين الرشدية والاعدادية العسكريتين أمكنه أن ينتقل الى المدارس العسكرية العالية الاختصاصية في العاصمة . ثم تلا ذلك انشاء المدارس التي كانت توصف بأنها ملكية وهي تقصد الى تخريج الموظفين ليعملوا في مصالح الدولة . ثم تلا ذلك انشاء مدارس التعليم العام .

وقد اختلف عدد المدارس وأنواعها ومُدَدُ الدراسة فيها حسب العهود والنظم

المختلفة . و صدر قانون التعليم العثماني في سنة ١٢٨٦ هـ / ١٨٦٩ م . وقد نقل كتاب الادارة العثمانية في ولاية سورية (١٨٦٤ - ١٩١٤) عن المقتطف (ج ٩ ص ٥٣٧) جدولاً يبين توزيع المدارس في المدن السورية في سنة ١٨٨٢ م هياًه شاهين مكاريوس نثبته لعله يعطي بعض الضوء عن الحالة التعليمية اذ ذاك :

المدينة	مدارس		معلمون معلمات	تلاميذ	تلميذات	سكان	
	بنون	بنات					
بيروت	٦٥	٣٦	٣١٦	٢٠١	٦٨٨١	٥٥٧١	١٢٠.٠٠٠
دمشق	١٣٥	٣٨	٢٠٠	٤٥	٥٠٠٠	٢٠٠٠	١٥٠.٠٠٠
القدس	٦٧	١٤	١٧١	٥٧	٢٨٧٢	١٠٨٦	٢٠.٠٠٠
حلب	٣٥	٧	٧٦	١٨	١٧٥٥	٨١٠	١٠٠.٠٠٠
طرابلس	١١	٤	٣٨	١٧	٦٨٧	٤٦٥	١٧.٠٠٠
حمّاه	٣٥	١	٢٧	١	١١٥٥	٢٠	٣٠.٠٠٠
حمص	٥٨	٣	٦٣	٤	٢١١٠	١٩٠	٢٠.٠٠٠
اللاذقية	١٢	٢	٢٧	٦	٦٦٤	١٦٠	١٢.٠٠٠
عكا	٢١	٢	٣٠	٧	٥٠٠	١٥٠	١٠.٠٠٠
صيدا	١٠	٥	٢١	٤١	٢٤٧	٢٤٠	٩.٠٠٠
صور	٥	٥	٨	٧	٢٤٠	٢٨٠	٣.٠٠٠
نابلس	٢٠	٣	٣٦	٤	١٠٨١	١٤٢	٨.٠٠٠
بعلبك	٣	٢	٥	٧	٣٠٠	١٣٣	٥.٠٠٠
حاصبيا	٣	١	٥	٣	٣٠٨	١٤٠	٦.٠٠٠
المجموع	٤٨٠	١٢٣	١٠٣٣	٤١٨	٣٣٨٠٠	١١٣٧٨	٥١٠.٠٠٠

وأياً كان الأمر فان مدارس سورية الحكومية كانت قليلة جداً في بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر ثم طفقت تزداد تدريجاً . وقد بلغ عدد المدارس الاسلامية التي أنشأتها الدولة والأهالي ٢٩١ مدرسة في سنة ١٣١٤ هـ - ١٨٩٦ م ضمت ١٠٦٣٧ تلميذاً و ١٤٨٨ تلميذة .

وبلغ عدد المدارس غير الاسلامية التي أسسها المسيحيون من رعايا الدولة ١٠٧ مدارس منها مدرستان اعداديتان و ٤ مدارس رشدية و ١٠١ مدرسة ابتدائية .

وقسمة المدارس تلك على مدارس اسلامية ومسيحية شكلية فقد كان يحق للتلميذ أن ينتسب الى المدرسة أيأ كان مذهبه .

□ ما بعد الدستور :

نحن هنا نعتمد ما جاء في مقدمة حولية الثقافة العربية لوضعها الأستاذ ساطع الحصري الخبير في قضايا التعليم العثماني فهو يصنّف المدارس الحكومية المدنية في الدولة العثمانية أواخر القرن التاسع عشر خمسة أصناف :

- آ - مدارس ابتدائية مدة الدراسة فيها ثلاث سنوات .
- ب - مدارس رشدية مدة الدراسة فيها ثلاث سنوات .
- ج - مدارس اعدادية على نوعين : الأول اعداديات الألوية مدة الدراسة فيها خمس سنوات . الثلاث الأولى منها رشدية . والثاني اعداديات الولايات مدة الدراسة فيها سبع سنوات الثلاث الأولى منها رشدية .
- د - مدارس صناعية ومدارس زراعية ودور المعلمين .
- هـ - وفوق كل ذلك جملة من المدارس العالية : مدرسة الطب ، مدرسة الحقوق ، مدرسة الادارة والسياسة (المعروفة باسم المدرسة الملكية الشاهانية) ، مدرسة القضاء ، مدرسة التجارة العليا ، مدرسة الزراعة العليا ، دار المعلمين العالية ، مدرسة البيطرة ، مدرسة الهندسة ، مدرسة الصنائع النفيسة (أي مدرسة الفنون الجميلة) .

نتابع الأستاذ الحصري فهو يقول : لما تم انقلاب الدستور سنة ١٩٠٨ أسرعت الدولة بالاصلاحات فأدخلت التغييرات الآتية :

- أدمجت المدارس الرشدية بالمدارس الابتدائية وجعلت مدة الدراسة الابتدائية ست سنوات قسمت على ثلاث حلقات : أولى ، ومتوسطة ، وعليا .
- حوّلت الصفوف الرشدية الملحقه بالمدارس الاعدادية الى صفوف ابتدائية .
- أحدثت نوعاً ثالثاً من المدارس الاعدادية سميت بالسلطانية وجعلت مدة الدراسة فيها اثنتي عشرة سنة ، الخمس الأولى منها ابتدائية .

— ألغت دور المعلمين القديمة واستعاضت عنها بمعاهد جديدة قائمة على أسس جديدة .

— أنشأت كلية العلوم وكلية الآداب وجمعت هاتين الكليتين الجديتين مع مدرسة الحقوق القديمة على شكل جامعة سميت دار الفنون ثم أنشأت كلية الآلهيات وألحقتها بهذه الدار .

— أحدثت بعض المدارس العالية خارج عاصمة السلطنة في مراكز بعض الولايات الهامة .

— ألغت المدارس الرشدية العسكرية وتركت المهمة التي كانت تقوم بها الى المدارس الابتدائية العامة .

— شرعت في تنظيم واصلاح المدارس الدينية القديمة وأنشأت من المعاهد الدينية التي كانت في العاصمة مدرسة دينية عالية دعيت باسم مدرسة دار الخلافة العالية .

— أنشأت دوراً للأيتام لايواء أبناء شهداء الحروب وتعليمهم .

— زادت العناية بمدارس البنات وفتحت أبواب الجامعة في العاصمة أمام الفتيات . هذا وكانت وزارة المعارف العثمانية تجري في انشائها المدارس وفي تنظيمها على غرار المدارس الفرنسية وكانت اللغة الفرنسية الى جانب اللغة التركية اجبارية في المدارس الرشدية والاعدادية عسكرية ومدنية وفي أكثر المدارس العالية .

ويعمد الأستاذ الحصري بعد ذلك التصنيف والعرض الموجز الشامل الى بيان مدى استفادة الولايات العربية من تلك المعاهد التعليمية سواء كانت هذه المعاهد قائمة في الولايات أنفسها أو في العاصمة نقلاً عن الاحصاءات الرسمية التي نشرتها وزارة المعارف العثمانية عام ١٩١٥ ونحن نكتفي هنا بذكر ما يتعلق ببلاد الشام . ونورد أول الأمر عدد المدارس الابتدائية :

١٨٥ في ولاية حلب ، ١٣٦ في ولاية سورية ، ١٢٥ في ولاية بيروت ،

ثم نورد عدد المدارس الثانوية : ثلاث في درجة السلطانيات (في مدن بيروت ودمشق وحلب) واثنتان في درجة اعداديات الألوية (القدس وطرابلس الشام •) ودار للمعلمين ، ومدرسة للصناعة في مركز كل ولاية ، ومدرسة زراعية واحدة في السلمية التابعة لمصرفية حماة ، ومدرسة للطب في دمشق ، ومدرسة للحقوق في بيروت • وهذا عدا المدارس العسكرية الاعدادية التي سلفت الاشارة اليها • ثم مدرسة الصلاحية في مدينة القدس • وسميت كذلك نسبة الى صلاح الدين الأيوبي وكانت مدرسة دينية عالية عصرية . وقد خرجت عدداً غير قليل من المعلمين الذين استطاعوا أن يخدموا النهضة التعليمية بعد انتهاء الحرب العالمية •

ولو عمد الأستاذ الحصري الى بيان عدد السكان في الولايات لكان البحث أوفى وأوضح • كان التعليم في جميع المدارس ابتدائية واعدادية و ثانوية وعالية يجري باللغة التركية • أما العربية فكانت تدرس كأنها لغة أجنبية • وكانت تدرس قواعدھا باللغة التركية لأن هذه القواعد تعين على فهم الأدب التركي وترقى بالانشاء في اللغة التركية •

كان الحكام العثمانيون في أواخر عهد دولتهم يتخبطون • فاشتد تعلقهم بطورانيتههم وبعنصرهم التركي فأرادوا أن يصهرروا العرب في بوتقة اللغة التركية • وهذا ما زاد التفريق بين الشعبين • فلم يكد ينتهي عهد السلطان عبد الحميد حتى لاحت الحياة النيابية في البلاد العثمانية ، وارتفعت أصوات العرب ، وقامت مظاهرات شعبية عنيفة تطالب بتعديل الأوضاع • ولم تكد تستجيب الدولة سنة ١٩١٣ لهذه الصيحات المطالبة بجعل اللغة العربية لغة التعليم حتى نشبت الحرب العالمية سنة ١٩١٤ فلم يتحقق من ذلك شيء •

ما سلف ذكره يتناول على الأغلب المدارس الرسمية التي أنشأتها الدولة وأشرفت عليها • وثمة في الدولة صنفان آخران من المعاهد وهما المدارس الطائفية والبعثات التبشيرية الأجنبية •

□ المدارس الطائفية :

منحت الدولة العثمانية رعاياها من غير المسلمين امتيازات خاصة في الشؤون الدينية والمذهبية واعتبرت قضايا التعليم تابعة للأديان والمذاهب • فحوّلت الطوائف مسيحية ويهودية حق انشاء المدارس وادارتها ونوّهت بالمساواة في الرتب والمناصب بين جميع الرعايا بحسب الاستعداد والكفايات • وقد سلف

أن أوردنا نصاً لفرمان الكلخانة يؤكد ذلك كله . وكانت المدارس الطائفية أول الأمر دينية وأكثر التعليم يجري في الأديرة والكنائس ولكن سرعان ما تطورت وغدت معاهد تعليمية عصرية تسلك منهاج خاصة تختلف باختلاف المذاهب والنحل ولا ترتبط بمناهج المدارس الحكومية وبرامجها وتطورها . وكانت لها الحرية في استعمال لغة التعليم التي تراها مناسبة لها فكان الأرمن يعلمون باللغة الأرمنية واليهود باللغة العبرية وكان المسيحيون العرب حراساً على اللغة العربية فكانوا يعلمون بها . ولما كان التعليم في مدارسهم بالعربية سبقوا في ذلك المدارس الحكومية التي كانت تعلم باللغة التركية واستطاعوا أن ينشئوا التعليم العربي الحديث في مدارسهم وأن ينبغ فيها عدد من الكتاب والبلغاء والخطباء والمؤلفين . وكل ذلك كان سبباً في دعم اللغة العربية وفي ازدهار بيانها الى جانب ازدهار علوم اللغة في حلقات العلوم الشرعية الاسلامية حين كانت اللغة التركية هي الطاغية على مختلف شؤون الدولة والولايات . وقد ذكرنا آنفاً عدد المدارس المسيحية في أواخر الدولة العثمانية . ويطالعنا المؤرخ الأديب الدمشقي نعمان قساطلي في كتاب « الروضة الغناء في دمشق الفيحاء » حوالي عام ١٨٧٨ بعدد مدارس النصارى للذكور فيحسبها تسعاً ويذكر فيها البعثات الأجنبية فتصل عنده الى ثلاث عشرة مدرسة ، ومدارسهم للبنات فيحسبها سبعاً من ضمنها ثلاث من البعثات الأجنبية . ويذكر مذهب كل مدرسة وعدد المعلمين أو المعلمات فيها وعدد التلاميذ والتلميذات والعلوم واللغات التي تدرسها ونفقاتها السنوية . ومن هذا العرض يستبين اختلاط مدارس النصارى بمدارس الأجانب . ولا شك أن بين النوعين صلات وثيقة كانت تفيد في تطوير منهاج هذه المدارس الطائفية . وهذا الكتاب مرجع لا بأس به لمعرفة أحوال دمشق في ذلك العهد وحال التعليم فيها . ويذكر قساطلي أنه كان في زمنه لليهود اثنتا عشرة مدرسة بسيطة فيها ٣٥٠ تلميذاً ويدرسون فيها مبادئ دينهم باللغة العبرانية « والعلم عندهم في درجة دنية مع أنهم أغنياء وفي وسعهم أن ينشئوا مدارس عالية » (الروضة الغناء ص ١٢٠) .

□ المدارس الأجنبية وبعثات التبشير :

ينال المرء حين يدرس بعثات التبشير المتقاطرة الى سورية شعوران متناقضان: الأول أن تلك البعثات كانت تتألف من أطباء ومهندسين وعلماء ومبشرين وكل

بيده مبضع أو كوس أو شعلة يريدون أن يتدركوا بها حالة « الرجل المريض » وينيروا الظلام المهدق به . والثاني أنها كانت كالوحوش الكاسرة الضارية تتربص الدوائر بذلك الرجل المريض لتتنقض على عضو من أعضائه نهشاً وتمزيقاً وتشفيًا . وربما كان كلا الشعورين صحيحاً ووجيهاً . وإذا لزم التفريق فإن الحكومات والهيئات الاستعمارية المشرفة والدافعة لأولئك العلماء والمهندسين والأطباء المبشرين هي الضارية الكاسرة والكاشرة عن أنيابها . أما الواردون أنفسهم فربما كان بعضهم أو أكثرهم مأخوذاً برغبة الإصلاح المبطننة . وهكذا كانوا يقومون بإنشاء المدارس وإقامة المطابع ونشر الكتب والتعليم باللغة العربية في البداية والتدرج الى استبدال اللغة الأجنبية بها وما يرافق ذلك من إحياء وتوجيه ودعاية وتخطيط خفي .

يذكر جورج أنطونيوس في كتابه «يقظة العرب» أن تلك البعثات الأجنبية يرجع وجودها في بلاد الشام الى مطلع القرن السابع عشر . وكان اليسوعيون أنشط الجمعيات التبشيرية وتعود صلتهم بالشام الى سنة ١٦٢٥ ثم تعطلت جمعيتهم عام ١٧٧٣ ثم استأنفوا عملهم في سنة ١٨٣١ . وكان من الأسباب التي أوجبت عودتهم أن البعثات التبشيرية الأمريكية وصلت الى بلاد الشام في عام ١٨٢٠ وأخذت تحوّل أفراداً من الطوائف الكاثوليكية الى المذهب البروتستانتي (الطبعة الأولى ص ٩٨) (لا شك أن القسارء الكريم يعرف قصة أحمد فارس الشدياق وما جرى لأخيه مع كلتا النحلتين) .

ولما حل عهد ابراهيم باشا في سورية اتسم حكمه بالتسامح كما سلف . وقد رافق التسامح الاقبال على العلم . وفتحت سياسته الباب أمام بعثات التبشير فخفف المبشرون أول الأمر الى بيروت ومنها انطلقوا الى سائر أنحاء الشام . ويذكر جورج أنطونيوس في كتابه أيضاً أن سنة ١٨٣٤ كانت تحوّل . « ففيها عاد اليسوعيون ووصل وافدون جدد من الأمريكان لينضموا الى الفئة القليلة التي سبقتهم . وبدأ التنافس على النفوذ بين الكاثوليك والبريسبتيريين . وقد وصلت حدة هذا التنافس أحياناً الى التناحر . وكان من نتائج ذلك انتعاش اللغة العربية وبانتعاشها قامت حركة فكرية انتقلت خلال زمن قصير من الأدب الى السياسة . حدثت في تلك السنة ١٨٣٤ أربع حوادث تستحق منا عناية خاصة .

كانت الأولى إعادة الآباء العازاين افتتاح كليتهم الخاصة بالذكر في عين طورة (عنطورة) . والثانية نقل مطبعة البعثة التبشيرية الأمريكية من مالطة الى بيروت . والثالثة قيام ايلي سميث وزوجته (وهو من الأمريكان المبشرين البريسبترين) بتأسيس مدرسة للناث في بيروت في بناء خاص بها . والرابعة ما قام به ابراهيم باشا من تطبيق برنامج واسع للتعليم الابتدائي للذكور على نمط النظام الذي أقره أبوه في مصر » (ص ٩٩ - ١٠٠) .

وأنشأ القس الأمريكي وليم طمسن مدرسة في بيروت عام ١٨٣٥ تمطلت عام ١٨٤٠ . وفي تلك السنة قدم الدكتور كرنيليوس فاندريك الهولندي الأصل الأمريكي النشأة الى سورية فجال فيها ورأى البلاد محتاجة الى المدارس العليا فأنشأ مدرسة عبيّة في لبنان عام ١٨٤٧ . وهي مدرسة عالية تعلم العلوم الطبيعية والرياضيات . وفي السنة نفسها أنشأ الآباء اليسوعيون مدرستهم في غزير (لبنان) وهذا الانشاء من ضروب المنافسة بين اليسوعيين والأمريكان (تاريخ آداب اللغة العربية ج ٤ ص ٣٩ الطبعة الثانية) .

ومن أهم ما قامت به البعثات الأمريكية انشاء ما يعرف اليوم بالجامعة الأمريكية . فقد وصل الى بيروت القس دانيال بلس عام ١٨٥٦ وكان مرسلًا للتبشير فرأى الحاجة الى انشاء كلية علمية تمهد للطلبة تلقي الطب وغيره وسافر الى أمريكا لجمع المال اللازم ونجح وألّف لجنة للعمل ضمت معه الدكتور فاندريك الذي ذكرناه آنفاً والدكتور يوحنا ورتبات وهو أرمني أمريكي وافتتحوا الكلية الانجيلية السورية في بيروت عام ١٨٦٦ لتدريس العلوم ثم افتتحوا بعد عام أي في ١٨٦٧ كلية الطب وكان معهم في هذه الكلية الدكتور جورج بوست وكان قدم سورية طبيباً ومبشراً عام ١٨٦٣ وسكن طرابلس فسمي أستاذاً فيها أيضاً . وقد لبسوا اللباس العربي وكانت لغة التدريس فيها هي العربية . وهم جميعاً قد تعلموا هذه اللغة واتقنوها وألّفوا فيها وغدت كتبهم معروفة ومشهورة وجيدة البيان . ثم ضموا اليها كليات متعددة كالصيدلة والتجارة والهندسة والزراعة وغيرها .

وأثار هذا الاتساع البروتستانتي البعثات الكاثوليكية فنهض اليسوعيون ونقلوا كليتهم التي أنشؤوها في غزير الى بيروت عام ١٨٧٤ وأطلقوا عليها جامعة القديس يوسف . ثم غير البروتستانت واليسوعيون لغة التدريس من

العربية الى الانكليزية والى الفرنسية . ويقول جرجي زيدان في كتابه : « حجة أصحاب هذا التغيير قلة الكتب التعليمية في اللغة العربية وكثرتها واتقانها في اللغات الافرنجية . وهو اعتراض وجيه بالنظر الى التعليم بحد ذاته . لكن التعليم يراد به أيضاً شيء آخر لا يقل أهمية عن ذلك - نعني ترقية شؤون الأمة وجمع كلمتها واحياء آمالها . وهذا لا يكون الا بترقية لسانها واحياء آدابها بتأليف الكتب العلمية والأدبية وانشاء الصحف والمجلات في تلك اللغة . ولا يتيسر ذلك الا اذا كانت هي قاعدة التدريس في المدارس العالية . فلو ظلت هذه المدارس كما كانت عليه في أول نهضتها لكانت اللغة العربية كما يتمناها كل محب للعرب . ولم يبق ما يحتاج به بعض الراغبين في اللغات الأجنبية من قصور التعبير عن المصطلحات العلمية » . (الكتاب والجزء أنفسهما ص ٤٣) ويعلق الدكتور عبد الكريم غرايبة تعليقاً لطيفاً وواعياً على هذا التحول الى اللغات الأجنبية في كتابه « سورية في القرن التاسع عشر » فيقول : « من أطرف الأمور أن يشعر المسؤولون بأن العربية صالحة كلغة تدريس يوم لم يكن فيها كتاب علمي واحد . ولما أن تمت ترجمة وطبع الكتب العلمية الأساسية الى العربية ادعوا بأنها غير صالحة . وربما وجدنا السبب الحقيقي في الدوائر التبشيرية الاستعمارية في الغرب التي كان من أهدافها تشجيع العربية في فترة ومحاربتها في فترة أخرى » . (ص ١٧٣) .

هذا ما وقع على الغالب في لبنان . ويذكر نعمان قساطلي في كتابه « الروضة الفناء » أن قد دخل دمشق في أيام ولاية ابراهيم باشا بعثات البروتستانت التبشيرية وأنشؤوا فيها وفي قراها عدة مدارس ، « سنة ١٨٧٣ دخل دمشق الرهبان اليسوعيون وأخذوا يشتغلون بنشاطهم المعتاد » . (ص ٩٤) .

وقد وفدت الى سورية بعثات تبشيرية أجنبية أخرى كان بينها الارلندية والدانمركية والانكليزية والايطالية زيادة على الأمريكية والفرنسية ، وقامت روسيا أيضاً وهي تنظر الى نفسها بأنها حامية الأرثوذكس فأنشأت مدارس خاصة بالطوائف الأرثوذكسية . وقد أنشأت هذه زيادة على مدارس بعثاتها مدرسة المعلمين في الناصرة (فلسطين) تُخرج معلمين تحتاج اليها تلك المدارس . جاء في كتاب « يقظة العرب » : « وكان لانتشار التعليم الغربي آثار سيئة أيضاً . وقد يبدو هذا القول عجيباً متناقضاً ، ولكنه الحق بعينه . فقد انتشر التعليم في بلاد

الشام في عهد عبد الحميد على نطاق أوسع جداً مما كان في العهود السابقة ، وأدى ذلك الى قيام شبكة من المدارس والكلليات امتدت الى جميع أنحاء البلاد . ولم تعد هذه المعاهد مقصورة على ما كانت تنشئه فرنسا وأمريكا وبريطانية ، بل دخلت الميدان البعثات التبشيرية الروسية والايطالية والألمانية وأضافت جهودها الى جهود الدول التي سبقتها . وكان هذا التنوع نفسه شراً جديداً في بلاد كانت فريسة للانقسامات الداخلية . وذلك لأن بعض البعثات التبشيرية أصبحت أدوات للمطامع السياسية فاختلطت مساوئ المنافسة الدولية وشرورها بحسنات التعليم ونعمه » (ص ١٦٤ - ١٦٥) .

كانت تلك المدارس الأجنبية تتكاثر في المدن التي تقطنها جماعات كبيرة من المسيحيين ، وكانت كل بعثة تنزل وتتوطد في الوسط الذي يلائمها . وكانت بيروت والقدس ودمشق وحلب من أهم مراكز هذه المدارس .

يضاف الى ذلك بعض المدارس الصهيونية التي كانت تديرها هيئات أجنبية كجمعية الأليانس وهي جمعية التحالف الاسرائيلي العالمي أقامت عام ١٨٧٠ مدرسة زراعية على أرض مساحتها ٢٦٠٠ دونم تابعة لقرية يازور العربية بعد أن استأجرتها من الدولة العثمانية وغدت هذه المدرسة عاملاً مهماً في اعداد الفلاح اليهودي ، كذلك أنشأت الأليانس وغيرها من الهيئات الأجنبية الصهيونية مدارس تُعلّم أطفال اليهود بلغة المنشأ ومدارس أخرى ابتدائية تعلم بالعبرية . وقد ألّفت هذه المدارس نواة لشبكة المدارس العبرية العامة فيما بعد .

□ أحوال بلاد الشام العامة في إبان القرن التاسع عشر :

ان حياة مجتمع ما كل مشتبك . ولهذا فان أحوال التعليم متصلة أوثق الاتصال بأحوال البلاد السياسية والاجتماعية والاقتصادية . ولا بد من الاشارة الى هذه الأحوال لتقدير الجهود التي بذلت في تعهد جذوة المعارف مُتَقَدِّة ، واستمرارها من وراء صروف معقدة عسيرة . والخلاصة أن التعليم في سورية ابان القرن التاسع عشر الميلادي مر بعهود مختلفة وتعرض منذ منتصف هذا القرن ولا سيما بعد عهد التنظيمات لضروب شتى من محاولات التحسين والاصلاح . وكانت تلك المحاولات مضطربة كاضطراب أحوال السلطنة ومتقلقلة كتقلقلها . هذا مع النكسات الخارجية والفتن الداخلية . وأهمها فتن

١٨٦٠ بين المسلمين والنصارى . يضاف الى ذلك فساد الحكم وتواتر الولاة وسوء جباية الضرائب . ويذكر محمد كرد علي في كتابه خطط الشام أنه « تعاقب على دمشق خلال هذا القرن ٦١ والياً وعلى حلب ٥٢ والياً . وهكذا سائر المتصرفيات الثانوية . لا يُسَلَّم الوالي الا ريثما يودع . والطيب منهم هو الذي لا تطول أيامه خاصة ، لأن حساده كثيرون في الاستانة وفي الولاية التي يتولاها ، وتقارير الجواسيس عند عبد الحميد مقبولة لا ترد . والدولة يصعب عليها أن تتفككت من قيودها القديمة ، قيود حكومة القروطاسيات أي المفاوضات الطويلة بالورق . فاذا رأت رجل جيد من أبنائها يحاول أن يعلمها الصواب في المعاملات لا تلبث أن ترميه بكل شنعاء . وكان حظ النوابغ في كل دور من أدوار العثمانيين ولا سيما في العهد الحميدي أن يغض منهم ويسعى الى التخلص من اصلاحهم ومراميمهم » (ج ٣ ، ص ١٠٣ ، ١٠٤ الطبعة الثانية) . ولا بد أيضاً من الاشارة الى بعض الكوارث والحوادث الطبيعية التي نزلت بهذه الولاية الممتازة . يقص علينا نعمان قساطلي (١٨٥٤ - ١٩٢٠) في كتابه « الروضة الفناء » أنه في سنة ١٨٦٤ قد دهم دمشق الجراد فأتلف أكثر مزروعاتها . ومنذ ذلك الوقت أخذت الأعمال بالتأخر شيئاً فشيئاً والأهالي بالضعف المالي ودخل بينهم روح التفرنج فكاد يهلك ثروتهم . وفي ١٨٦٥ أتاها الهواء الأصفر (أي الهیضة أو الكوليرا) فمات به نحو عشرة آلاف نفس . وسنة ١٨٦٧ الموافقة ١٢٨٧ كان غلاء شديد وتوقفت الأشغال ودام ذلك الى سنة ١٨٧١ وهبط سعر الحرير فلحق ضرر عظيم بأصحابه وسنة ١٨٧٣ انحبست الأمطار فصار غلاء شديد آخر واشتد ضيق الأهالي . وفي آذار هطلت الأمطار والثلوج فسدت الطرقات واشتد الغلاء حتى بيع جفت الحنطة (٢٥ أقة) بمئة غرش ونيف . وكان البعض يأكلون بقول الأرض لفقرهم وسنة ١٨٧٥ عاودها الهواء الأصفر واستقام شهرين فمات به تسعة آلاف ومئتان منهم ٢٥٠ نسمة من النصارى (وأول من مات بهذا الوباء امرأة الخواجة نقولا السبط وكانت من الفريديات بالتهذيب والجمال) ، وفي أواخر أيار في تلك السنة هطلت سيول مفعمة فطاف نهر بردى فاقتلع الجسور المتينة وعلت المياه فوق سطح المرجة ذراعاً ونصفاً ، ودخلت دائرة الحكومة وسوق الخيل والمحاربية حتى دخلت العمارة فأخذ الصيادون يصيدون الأسماك من أسواق المدينة التي دخلتها المياه . « وقد نقلنا النص على طوله لأن تلك الحوادث كانت مشاهدات المؤلف العيانية ولأنه لا يخلو من تصوير

دقيق لتلك الكوارث. على أن أشد العوادي نشوب الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) فالى جانب عسف الوالي على سورية الطاغية جمال باشا الذي نعت بالسفاح سيق القسم الكبير من الأهالي الى ساحات التجنيد . وظهر الجراد أيضاً في ربيع عام ١٩١٥ فأتى على المزروعات والمحصولات ، واجتاحت المجاعة البلاد اجتياحاً عنيفاً . ذكر مؤلف كتاب « يقظة العرب » عبارة من مقال نشرته التايمز في الثاني عشر من آب ١٩١٦ بقلم مراسل محايد غادر سورية قبيل ذلك التاريخ وهي : « ان حال أهالي سورية مما لا يكاد يصدق . . . هناك يتعرض المسلمون الناطقون بالعربية لارهاب جديد . ويقدر عدد الذين قضت عليهم المجاعة في شمالي سورية بين الستين ألفاً والثمانين . » وأورد المؤلف أيضاً رسالة كتبها سيدة أمريكية عاشت في بيروت وغادرت البلاد في صيف ذلك العام ونشرت التايمز أيضاً رسالتها في الخامس عشر من ايلول : « بدأت حالات الجوع تظهر قبيل حلول الربيع اذ وجد ناس مطروحين في الشوارع وقد زایلهم الوعي وحملوا الى المستشفيات . ولقد مررنا بنساء وأطفال على جوانب الطرق وعيونهم مغمضة ووجوههم شاحبة ترهقها صفرة الموت . وكم وجدنا أناساً يفتشون في أكوام القمامة عن قشور البرتقال والعظام البالية وغيرها من الفضلات ويأكلونها في نهم ان وجدوها . وفي كل مكان كانت النساء يُشاهدن وهن يبحثن عن الأعشاب الصالحة للأكل بين الحشائش النامية على مدى الطرقات . » ويعلق المؤلف على ذلك بقوله : « ذلك هو ما كان يحدث في بلاد تنتج في العادة كميات وفيرة من المؤن الغذائية الأساسية بأكثر مما تستطيع استهلاكه . »

هذا واذا أردنا أن نلخص أحوال المدارس والمعاهد التعليمية في سورية في أواخر السلطنة العثمانية وجدناها متنوعة على الشكل التالي :

- ١ - كتاتيب ابتدائية .
- ٢ - حلقات علوم شرعية اسلامية .
- ٣ - مدارس وقفية وأهلية اسلامية .
- ٤ - مدارس رسمية تعلم باللغة التركية ولا تهتم باللغة العربية .
- ٥ - مدارس طائفية تنضوي الى الجماعات الدينية المتفاوتة في الولاية . وهي تعلم باللغة العربية وتتأثر بالمدارس الأجنبية التي على دينها ومذهبها .
- ٦ - مدارس أجنبية تنتسب الى مختلف الدول الغربية وهي بعثات تبشيرية تعلم لغة الدولة التي تنتسب لها كما تعلم اللغة العربية وتعمل على نشر ثقافة تلك الدولة وتعميق نفوذها .

وقد أرادت الدولة العثمانية بقانون التعليم الذي صدر سنة ١٩١٣ أن تشرف على المدارس الطائفية والأجنبية وأن تتولى الرقابة عليها ولكن حال دون ذلك اشتعال الحرب .

□ صروف الحرب وما بعدها :

وفي غمرة الحرب أغلق بعض المدارس الأهلية الخاصة وجُنِّد غالبية الشباب، واضطرت البعثات التبشيرية الأجنبية المعادية للدولة العثمانية الى مغادرة سورية ولبنان وتركيا على العموم وصودرت ممتلكاتها ووضعت تحت اشراف السلطات العسكرية ولم يبق منها الا المدارس الألمانية والبعثات الأمريكية والجامعة الأمريكية في بيروت تتابع أعمالها ونشاطها .

سعت الحكومة العثمانية في تلك الآونة نحو تحسين التعليم العام وخاصة تعليم البنات لشدة الحاجة الى استعانتهم في المرافق العامة . ولا غرو في ذلك لأن أكثر الشبان قد سيقوا الى ميادين الحرب . وكانت الحكومة العثمانية أنشأت سنة ١٩٠٣ معهداً طبياً في دمشق تخرّج منه خلال خمسة عشر عاماً مائة وعشرة أطباء وخمسون صيدلياً ثم نقلته الى بيروت حيث حل مكان كلية بيروت الطبية اليسوعية (سورية والعهد الفيصلي ص ٤٣) وقد أنشأت الحكومة في بيروت سنة ١٩١٣ معهد الحقوق ارضاء للسوريين في الساحل والداخل الذين كانوا يطالبون بالاصلاح الاداري . وعلى أثر نشوب الحرب نقلته الى دمشق . وكانت الدراسة في المعهدين باللغة التركية عدا دروس المجلة وأحكام الفقه والفرائض والزواج فكانت تلقى بالعربية . ومع ذلك فقد أدخلت بعض المدارس العامة أيضاً أو أغلق لفقدان الأمن وآلام سني الحرب الرهيبة ولتجنيد الشباب وطائفة من المعلمين . فانخفض مستوى التعليم انخفاضاً ملحوظاً في المدارس التي بقيت مفتوحة .

ولما وضعت الحرب أوزارها ولاح فجر الاستقلال تأسست حكومة عربية في بلاد الشام في الخامس من تشرين الأول عام ١٩١٨ ملكها الأمير فيصل بن عبدالله وشعر الناس كأنما انجاب الظلام عن رؤوسهم وطفقت أشعة الآمال تداعب نفوسهم وأصبحت البلاد وكأنها خلقت خلقاً جديداً مفاجئاً فغدت الجماهير يشيدون بنعمة الاستقلال ويتغنون بالماثر العربية وبتاريخ الأمجاد ويتحمسون للغة الأجداد . وقد حصل ارتباك أول الأمر في تصريف الأمور باللغة العربية بعدما ظلت

اللغة التركية لغة البلاد الرسمية نحو أربعة قرون فلم يكن بد من انشاء هيئة أو مؤسسة تضع المصطلحات العربية نحتاً أو اشتقاقاً أو ترجمة أو نقلاً وتعريباً حتى يتيسر العمل ويتهيأ للموظفين تسيير الأمور دون أن يتوقف النشاط الاداري والتعليمي والثقافي . ولهذا عمدت الحكومة العسكرية الجديدة الى انشاء الشعبة الأولى للترجمة والتأليف بتاريخ ٢٨ تشرين الثاني ١٩١٨ للنظر في أمر اللغة العربية الرسمية ونشر الثقافة العربية بين المواطنين واستبدال المصطلحات العربية بالتركية . وقد ضمت تلك اللجنة بعض رجال الأدب والفكر والصحافة والقائمين على تدريس اللغة العربية وعلومها في المدارس الدينية وفي الجوامع . ثم رأت الحكومة أن تعهد الى شعبة الترجمة في الاشراف على فروع أخرى تتعلق بالثقافة والتعليم والفن فأضافت الى شعبة الترجمة أمور المعارف وأنشأت بذلك ما أسمته «ديوان المعارف» بتاريخ ١٢ شباط ١٩١٩ ليشراف على أمور المعارف وحركة التأليف وتأسيس دار الآثار والعناية بالمكتبات ولا سيما دار الكتب الظاهرية . وقد سارعت الحكومة عقب تأليفها الى اعادة فتح المدارس التي كانت قائمة في العهد العثماني بعد اغلاقها أثناء الحرب وقررت تحويلها الى مدارس عربية كما أنها شرعت في انشاء معاهد تعليمية جديدة . وهكذا ازدادت أعمال المعارف واتسعت كما اتسعت حركة التأليف والترجمة . فقسّمت الحكومة الديوان قسمين : قسم يختص بالمعارف ، وقسم يختص بشؤون اللغة والآثار والمكتبات . وهكذا تشكلت وزارة المعارف كما تشكل المجمع العلمي العربي بموجب الوثيقة المؤرخة في ١٩١٩/٦/٨ (أصبح المجمع اليوم يدعى مجمع اللغة العربية) . وانصرف المعلمون في المدارس الابتدائية والثانوية الى ترجمة الكتب المدرسية الى العربية وتأليف الجديدمنها وولدت نواة الجامعة السورية من المعهدين : المعهد الطبي الذي أعيد من بيروت غب انتهاء الحرب وافتتح في الشهر الأول من عام ١٩١٩ ، ومعهد الحقوق الذي أعيد افتتاحه بدمشق في الشهر التاسع من العام ذاته على أسس جديدة وأصبح الشرط في تسمية الأساتذة فيهما أن يحسنوا التدريس باللغة العربية الى جانب اختصاصهم اذ هي اللغة الرسمية للدولة وللجامعة واتجه التعليم الى روحه الأصيلة واتصفت التربية بالصفة الوطنية ، وغدا النشاط والحماسة بالغين في برهة لم تتجاوز العامين أي في مدة ذلك الاستقلال .

ان مراحل التعليم التي عرضناها آنفاً كانت تقوم وراءها وتسندها في غالبية الأحيان الجمعيات الخيرية الناشطة والمكتبات العامة والخاصة بأجوائها الهادئة والمطابع بوضائها المجلبة الصاخبة وقد تخرج في تلك الحقبة أعلام يفتخر بهم التاريخ الحديث . ولذلك ليس لنا بد من بيان ملامح هذه الهيئات والمؤسسات وأولئك الأعلام ولو ساور الايجاز هذا البيان .

□ الجمعيات الخيرية التعليمية :

نشأت في بلاد الشام جمعيات متعددة تغلب عليها الصفة الدينية والمذهبية غايتها نشر العلم وتنشيط التربية والتعليم وإنشاء المدارس .

وربما كان من أسبقها جمعيات التبشير الأمريكية واليسوعية .

وقد تألفت أول جمعية من هذا النوع في لبنان سنة ١٨٤٧ باسم الجمعية السورية أسسها المبشرون الأمريكيون قبل افتتاح مدارسهم المعروفة وكانت لها صفة النادي فضمت أكثر الأدباء والعلماء وأشهرهم اذ ذاك أمثال بطرس البستاني وناصيف اليازجي وميخائيل مشاقة ثم كرنيليوس فانديك وجورج ورتبات اللذين غدوا أستاذين في الكلية الانجيلية السورية .

وأعيد تأليف هذه الجمعية عام ١٨٦٨ حين فتحت أبوابها للمسلمين واتسع نشاطها اتساعاً كبيراً .

وكان قد تلاها تأسيس الجمعية الشرقية الكاثوليكية في دير الآباء اليسوعيين عام ١٨٥٠ .

وتأسست جمعية طلابية باسم الجمعية العلمية في الكلية الانجيلية السورية عام ١٨٦٦ لمساعدة الطلاب وتدريبهم على البحث والمنافسة والخطابة .

وتألفت جمعية زهرة الآداب من خريجي المدارس سنة ١٨٧٣ لتنشيط البحث والتدريب على الخطابة والمناقشة كان من أعضائها ابراهيم اليازجي وسليمان البستاني مترجم الياذة وأديب اسحاق .

وانشئت الجمعية التاريخية السورية في دمشق عام ١٨٧٥ لتشجيع البحوث التاريخية .

وقد حث مدحت باشا والي سورية المصلح على تأليف جمعية خيرية في دمشق سنة ١٨٧٩ لنشر الثقافة والمعارف بين الشعب فأنشأت حلالاً ثمانياً مدارس للذكور ومدرسة للاناث وقد توارد التلاميذ على مدارسهم فبلغ عددهم ألفاً ومئة والتلميذات على مدرستهن فبلغ عددهن مائة وخمسين . ونفقة هذه المدارس من أهل الاحسان . وكان في نية مدحت باشا أن يزيد عدد المدارس وينشئ مدارس عالية أيضاً كما أشار الى ذلك قساطلي في كتابه « الروضة الغناء » لولا أن الوالي أبعد من سورية بعد عام .

وأنشأ صفوة من الأدباء والعلماء في بيروت عام ١٨٨٠ جمعية المقاصد الاسلامية فأسست مدرستين للذكور ومدرستين للبنات وسعت في ارسال شبان الى المدرسة الطبية المصرية بالقاهرة . ولكن الحكومة العثمانية خشيت من نشاط مؤسسيها فأوقفتها وأبدلت بها مجلس المعارف . ثم نشأت بعدها جمعية بالاسم ذاته فكان لها فضل في انشاء مدارس عديدة للذكور وللاناث وفي نشر العلوم في لبنان .

وأسست سيدات من الطائفة الأرثوذكسية جمعية زهرة الاحسان عام ١٨٨٠ في لبنان لنشر التربية والتعليم بين أبنائها .

وتأسست جمعية تهذيب الشبيبة السورية عام ١٩٠٣ أكثر أعضائها من أساتذة الجامعة الأمريكية ولها فرع نسوي غايتها مساعدة الطلاب مالياً .

وأسست صفوة من أسر بيروت جمعية يقظة الفتاة العربية لتعليم الفتيات ومساعدتهن .

وفي غرة عهد الملك فيصل على سورية أنشأت بعض السيدات جمعية يقظة المرأة الشامية بدمشق وفتحت مدرسة لبنات الشهداء وقد منحهن الملك فيصل بناءً لها يقع في طريق الصالحية وغدت بعدئذ مدرسة تجهيز البنات ، وكانت تلميذات المدرسة يُغنّين الأناشيد الوطنية منها هذه اللازمة :

لا تحزني لا تندبي
فانت بنت العرب

بنت الشهيد العربي
أبوك إن مات الأبى

وفي سنة ١٩٢٠ أنشأت الكاتبة السورية ماري عجمي النادي الأدبي النسائي لبث الثقافة بين الفتيات والنساء . ثم توالى الجمعيات التي تعمل على انشاء المدارس في دمشق في مستهل عهد الانتداب البغيض حفاظاً على التراث . ومن أهمها الجمعية الغراء أسسها الشيخ محمد علي الدقر ، وقد أشرفت على ستة معاهد للعلوم الشرعية الاسلامية كما أنشأت خمس مدارس ابتدائية .

□ المطابع :

لا شك أن الطباعة من مقومات الثقافة والتعليم . وقد سبق السوريون الى الطبع بالحروف العربية وأسبق المدن الى هذه المأثرة حلب وكان الغرض من ادخال الطباعة طبع الكتب العربية المسيحية . وذلك في العقد الأول من القرن الثامن عشر (زيدان ح ٤ طبعة ثانية ص ٤٥) .

ثم ظهرت المطابع في لبنان . أشرنا آنفاً الى نقل البعثة التبشيرية الأمريكية مطبعتها التي أنشأتها في مالطة الى بيروت عام ١٨٣٤ . وفيها طبعت الكتب العلمية والطبية والرياضية وغيرها مما ألفه أساتذة الكلية الانجيلية السورية لتعليم طلبتها . وفيها أيضاً طُبع بعض كتب الأدب والشعر والتاريخ فضلاً عن التوراة وكتب الدين .

ولا عجب أن يليها بسبب التنافس تأسيس المطبعة الكاثوليكية عام ١٨٤٨ . كانت تطبع على الحجر ثم صارت تطبع على الحروف عام ١٨٥٤ . وقد نشرت كتباً كثيرة في الأدب والتاريخ واللغة العربية فضلاً عن الكتب المدرسية والدينية ولا سيما التوراة بترجمة الآباء اليسوعيين . ثم أنشأ خليل الخوري المطبعة السورية عام ١٨٥٧ نشرت كتباً قانونية وأدبية وتاريخية . وقام يوسف الشلفون الماروني بنشاط كبير في ميدان الطباعة . بدأ عاملاً في مطبعة خليل الخوري ثم تركها ليؤسس عام ١٨٦١ المطبعة العمومية . واشترك معه عام ١٨٧١ رزق الله الخضر فأضاف كلمة الكاثوليكية الى اسم المطبعة . واستقل الخضر بالمطبعة ثم اشترك معه رئيس أساقفة بيروت الماروني يوسف الدبس وطبع فيها كتابه تاريخ سورية . أما يوسف الشلفون فأنشأ مطبعة جديدة عام ١٨٧٤ دعاها المطبعة الكلية .

وكان خليل سركييس والمعلم بطرس البستاني قد أنشأ مطبعة المعارف عام ١٨٦٧ نشرت قاموس محيط المحيط ودائرة المعارف وغيرها وانفصل سركييس عن

زميله فأنشأ المطبعة الأدبية عام ١٨٧٤ ليصدر جريدة لسان الحال ولينشر طائفة من الكتب والمجلات والصحف .

وكان ابراهيم باشا قد حمل معه الى دمشق مطبعة حجرية لطبع المنشورات والأوامر العسكرية . ثم أدخل حنا الدوماني عام ١٨٥٥ مطبعة جلب حروفها من أوربة وعرفت بمطبعة الدوماني أو المطبعة الدومانية اقتصر نشاطها على نشر الكراريس الدينية والمزامير وآلت ملكيتها عام ١٨٨٢ الى محمد الحنفي فأصبحت تعرف بالمطبعة الحنفية . ثم أنشأت الحكومة العثمانية عام ١٨٦٤ أول مطبعة لها باسم مطبعة ولاية سورية لتصدر عنها أول جريدة في دمشق هي جريدة سورية باللغتين العربية والتركية . وتلتها مطبعة حكومية أيضاً هي المطبعة العسكرية مخصصة بنشر التقاويم واللوائح العسكرية سرعان ما توقفت . وأنشأ خالد عطار حسن مطبعة روضة الشام عام ١٨٩٣ انتقلت ملكيتها الى خالد قرصلي . ثم توالى بعد هذا التاريخ تأسيس المطابع في دمشق كالمطبعة الحميدية أسسها سليمان لطفي عام ١٨٩٨ ، والمطبعة العلمية أسسها محمد هاشم الكتبي وغدا اسمها منذ ١٩١٠ مطبعة الفيحاء، ومطبعة المقتبس تأسست عام ١٩١٠ ، ومطبعة ألف باء عام ١٩١٢ ، والمطبعة العثمانية عام ١٩١٢ ، ومطبعة البطريركية الأرثوذكسية عام ١٩١٢ ، وهي التي أصبح اسمها مطبعة باب توما ، ثم مطبعة المنار ١٩١٤ . هذا وفي طرابلس أسس محمد كامل البحيري مطبعة البلاغة عام ١٨٩٣ لتصدر عنها جريدة طرابلس وتلاه جورج يني الذي أسس عام ١٩٠٨ مطبعة الحضارة وأصدر عنها مجلة المباحث .

□ المكتبات :

على رغم الصروف العاتية التي أحاطت بسورية فان مناهل العلم بقيت زاخرة . وليست مناهل العلم سوى المكتبات الى جانب المعاهد والمدارس على اختلاف أنواعها وتفاوت درجاتها وتباين أساليبها .

وينبغي أن ننوه بأن الكتب في الشطر الأكبر من القرن التاسع عشر كانت مخطوطة وكان الطلاب ينسخون ما يحتاجون اليه من المتون والشروح والحواشي أو يَكَلِّفون بعض الوراقين نسخها . وقد نشأ عندهم خُطَطٌ معروفة للنسخ يأتون بلوح على مقدار الصحيفة ويشدون عليه خيوطاً تتباعد بمقادير السطور ثم

يكبسون الورق عليها بعض الشيء لكي تظهر آثار الخيوط عليها ثم يكتبون على الآثار سطوراً متوازية مستقيمة حتى اذا انتهوا من النسخ جلدوها تجليداً مناسباً وحفظوها لأنفسهم ولذويهم . هذا والحضارة العربية القديمة قد استأثرت بجمال الخطوط وحسن التجليد ومهارة التأليف . وكان عند كل عالم مكتبة عامرة بالمخطوطات يرجع اليها في بحوثه وفي تدريسه . وهي مكتبات أهلية متى توفي عنها صاحبها توارثها البنون اذا اشتغلوا بالعلوم أو باعوها ان كانوا في حاجة الى المال . ولكن الكتب دائماً كانت مقدسة عند الناس ولا سيما اذا كانت مكتوبة باللغة العربية لأن هذه اللغة مقدسة أيضاً . أما المكتبات التي يؤمها القراء فقد أصابها من الصروف ما أصاب البلاد . وهنا نذكر ما كتبه قساطلي في « الروضة الغناء » فهو يقول (ص ١٢٠) :

كان في دمشق مكاتب شهيرة . ولقد لعبت بها أيدي الخراب فلم يبق منها الا القليل . ومن أشهرها ما بقي منها الى يومنا هذا (حوالى عام ١٨٧٨) المكتبة العمرية بالمدرسة العمرية بالصالحية (نسبة الى الشيخ عمر المقدسي) فيها كتب نفيسة وكلها خط وأكثرها نادر الوجود ، ومكتبة الشيخ خالد بالقنوت في بيت الشيخ عمر الحضرة وكل كتبها خط ، ومكتبة عبد الله باشا (العظم) وكتبها خط منها تاريخ الشام لابن عساكر في ثمانين مجلداً ومكتبة الأشماسية (الشميساطية) بمدرسة قرب الجامع الأموي وكلها كتب خط . ولما قدم مدحت باشا والياً على سورية عام ١٨٧٩ حث الجمعية الخيرية التي أنشأها على جمع الكتب من المكتبات المتفرقة ومن المساجد ووضعها في مكان واحد قرب التربة العادلية وهو الذي يعرف بالظاهرية نسبة الى ضريح الملك الظاهر . ويذكر جرجي زيدان زيادة على تلك المكتبات التي ذكرها قساطلي ست مكتبات أخرى وهي مكتبة سليمان باشا العظم ومكتبة ملا عثمان الكردي ومكتبة الحياطين وقفها الحاج أسعد باشا والمكتبة المرادية نسبة الى الشيخ مراد النقشبندي والمكتبة الياغوشية ومكتبة الأوقاف ، وهذه جمعت من مكاتب متفرقة ، ومكتبة بيت الخطابة في الجامع الأموي كانت في بيت الخطابة من هذا الجامع . فمجموع هذه المكتبات مع ما ذكره قساطلي عشر كلها أوقاف وقفها أصحابها على طلاب العلم ودوره . ولما عزل السلطان عبد الحميد الثاني الوالي المصلح مدحت باشا عام ١٨٨٠ نهضت الجمعية

الخيرية بالعمل فجمعت ما تيسر لها جمعه من المكتبات العشر الآنفة ونشأت من مجموع الكتب المكتبة الظاهرية . وكان الفضل في هذا التجميع لفريق من العلماء على رأسهم الشيخ طاهر الجزائري والشيخ سليم البخاري والشيخ علاء الدين ابن عابدين اذ استطاعوا أن يستخرجوا كتب الوقف من أيدي متولي الوقف ليضعوها في خزانة لدى قبة المدرسة الظاهرية .

وظلت المكتبة تحت مراقبة لجنة خاصة حتى عام ١٩١٩ حين ألحقت بديوان المعارف ثم ألحقت بالمجمع العلمي العربي حين استقل عن ديوان المعارف . (انتقلت المخطوطات وقسم كبير منها عام ١٩٨٧ الى مكتبة الأسد) .

أما المكتبات الأهلية في دمشق فانما هي عند أسر العلماء كمكتبة الشيخ عبد السلام الشطي ومكتبة الشيخ عبد المحسن المرادي ومكتبة رحمة الله النابلسي ومكتبة الشيخ بدر الدين الحسني وأمثالهم . وكذلك الحال في بقية المدن .

ومن المناسب أن نذكر هنا هذه الطرفة وهي ما أورده محمد كرد علي في مذكراته حين كان طفلا استصحبته والدته في زيارتها لأسرة الشيخ محمد الطنطاوي فوق نضره في القاعة التي جلسا فيها على رفوف في الحيطان مصفوف عليها مجلدات وكتب كثيرة فتعجب مما رأى وسأل والدته عن هذه الأشياء فقالت : هذه كتب يقرأ فيها العلماء . فأعجبه ذلك المنظر الطريف وأثرت فيه لهجة أمه المشتملة على التعظيم فقال لها : أنا أحب أن أتعلم هذه الصنعة .

وفي حلب مكتبات مهمة أشهرها المكتبة الأحمدية ومكتبة المدرسة الرضائية والمكتبة المارونية والمكتبة الملكية للروم الكاثوليك والمكتبة السريانية ومكتبة بني الدلال ومكتبة ابن الهبراي ومكتبة بني الجابري .

وفي بيروت مكتبة الجامعة الأمريكية والمكتبة الشرقية للآباء اليسوعيين .

وفي القدس المكتبة الخالدية أسسها راغب الخالدي ثم أضيفت اليها كتب ضيا باشا الخالدي وروحي بك الخالدي وهي مفتوحة الأبواب للجمهور وتأسسها كان بتشجيع الشيخ طاهر الجزائري .

ولا ننسَ خزائن الكتب في التكايا والأديرة والكنائس . ومن المؤسف أن بعض الكتب المخطوطة في التكايا وعند بعض الأسر قد تسربت بصورة من الصور الى

الخارج وبيعت من المستشرقين والغرباء وأصبحت جزءاً من الأقسام العربية في المكتبات الأجنبية زيادة على ما تحتويه تلك المكتبات من مخطوطات ومن كتب عربية .

□ كوكبات من نجوم القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين :

تلك المعاهد والمدارس والمكتبات والجمعيات والمجلات ودور الطباعة كانت مراكز النور في عهود صعبة وداجية مرت ببلاد الشام . ومع ذلك فقد تخرج فيها على اختلاف أنواعها وتفاوت درجاتها وتباين طوائفها أدباء وعلماء ورجالات ، زينوا تلك العهود بسناتهم فكانوا كالنجوم في سماء ذلك القرن . حفظوا لنا التراث وأحيوا موات اللغة وجددوا حسن البيان فيها وأضاءوا حنادس الجهل والأمية وتلافوا عنت الزمان وناضلوا صروف الحدثان . ولا نستطيع في هذا البحث المحدود أن نحصي تلك النجوم ولا أبراجها . وأكثرها طلع من تلك المدارس الوقفية ومن زوايا المساجد والتكايا مع ما تعرضت له هذه الأماكن من التنديد بها . وقد كانت المدارس والكنائس المسيحية قد أنبتت أيضاً عدداً صالحاً من علماء اللغة والبيان والعلوم الأخرى . ولئن تصعب الإحصاء فلا أقل من التنويه ببعض الأسماء .

يندر بين رجال الشرع والدين الاسلامي من لم يعجب بالشيخ محمد أمين (١٧٨٤ - ١٨٣٦) المشهور بابن عابدين صاحب كتاب « رد المحتار على الدر المختار على متن تنوير الأبصار » وهو المعروف بحاشية ابن عابدين في خمسة مجلدات وهو من أكبر المراجع للفقهاء الحنفي ، وبالشيخ أحمد الحلواني الكبير الرفاعي (١٨١٣ - ١٨٨٩) شيخ القراء بدمشق وبالشيخ عبد الرزاق البيطار (١٨٣٧ - ١٩١٦) صاحب كتاب حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر ، وبالشيخ سليم البخاري اللغوي (١٨٥١ - ١٩٢٨) أحد رجال الإصلاح الديني واليقظة الحديثة في سورية . ولما تولى منصب رئاسة العلماء ضبط التدريس في المساجد ، والشيخ محمد بن يوسف بدر الدين الحسني (١٨٥١ - ١٩٣٥) المحدث الكبير ، والشيخ طاهر الجزائري (١٨٥٢ - ١٩٣٠) الذي تعاون مع الوالي مدحت باشا في انشاء المدارس اذ كان عضواً في الجمعية الخيرية التي كلّفت ذلك العمل وله الفضل الكبير في النهضة العلمية ببلاد الشام وفي تأسيس

المكتبة الظاهرية ، كما أعان في تأسيس المكتبة الخالدية بالقدس الشريف ،
والشيخ محمد رشيد رضا (١٨٥٦ - ١٩٣٥) صاحب المنار أصدرها في مصر ،
والشيخ جمال الدين بن محمد القاسمي (١٨٦٦ - ١٩١٤) الذي أربت تأليفه
على الثمانين ، والشيخ محمد علي الدقر (١٨٧٧ - ١٩٤٣) مؤسس الجمعية
الفراء ذات الفضل الكبير في انشاء عدد وافر من المدارس الشرعية والمدارس
الابتدائية بدمشق في أوائل الانتداب الفرنسي .

وكل من شدا شيئاً من اللغة والأدب والشعر والعلوم أو اهتم بالتأليف
والصحافة فلا بد أن يكون قد طالع بعضاً من آثار النوابغ من أمثال الشيخ الشاعر
العلامة الصوفي عمر اليافي (١٧٥٩ - ١٨١٨) والشيخ الشاعر
أمين الجندي (١٧٦٦ - ١٨٤١) وبطرس كرامة (الحمصي ١٧٧٤ - ١٨٥١)
والشيخ ناصيف اليازجي (١٨٠٠ - ١٨٧١) صاحب مقامات مجمع البحرين
وكتاب نار القرا شرح جوف الفراء في النحو، والعلامة ميخائيل مشاقة الدمشقي
(١٨٠٠ - ١٨٨٨) وأحمد فارس الشدياق (١٨٠٤ - ١٨٨٧) صاحب الجاسوس على
القاموس والساق على الساق فيما هو الفارياق وسر الليال في القلب والابدال،
وبطرس البستاني (١٨١٩ - ١٨٨٣) صاحب محيط المحيط وقطر المحيط ،
وابراهيم اليازجي حفيد ناصيف (١٨٤٧ - ١٩٠٦) صاحب كتاب المترادف والمتوارد
وعبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٩ - ١٩٠٢) صاحب كتابي طبائع الاستبداد وأم القرى،
وسعيد الشرتوني (١٨٤٩ - ١٩١٢) صاحب معجم أقرب الموارد، وأديب اسحاق
(١٨٨٥ - ١٩٥٦) الأديب الذي انتقل الى مصر واشتغل بالصحافة والسياسة ،
ورفيق العظم (١٨٦٧ - ١٩٢٥) المؤرخ صاحب كتاب أشهر مشاهير الشرق،
وشكيب أرسلان (١٨٦٩ - ١٩٤٦) أمير البيان ، ومحمد كرد علي (١٨٧٦ -
١٩٥٣) صاحب خطط الشام ومجلة المقتبس ورئيس المجمع العلمي الذي
صار فيما بعد مجمع اللغة العربية والأمير مصطفى الشهابي (١٨٩٣ -
١٩٦٨) رئيس المجمع العلمي أيضاً وصاحب معجم الألفاظ الزراعية
وخليل مردم بك (١٨٩٥ - ١٩٥٩) شاعر الشام ورئيس مجمع اللغة العربية
بدمشق .

هذا عدد قليل من كثير . وكأن هؤلاء السلف الصالح المؤلف من الأعلام والأدباء
والعلماء الكرام يدركون في الملكوت الأعلى مكانتهم في تاريخ بلاد الشام أبان

القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، ويشعرون بما قدموه من خدمات فكرية جُلّى ومن أياد بيض في ميادين الثقافة والعلم على الرغم من المحن والعوادي . وهم يهيئون بالخلف من أبناء الوقت الحاضر كي يجرؤا على غرارهم ويأتمسوا بهديهم ويتحلّوا بحلّاهم وكأنهم اتخذوا شعاراً لهم هذه الأبيات :

نحن في جبهة الزمان نجوم	تتهادى على سماء العروبه
كم دفعنا عن البلاد خطوباً	وأرنا لكل سارٍ دروبه
ليس نفنى وانما نحن رمز	ملتهم عند كل شأٍ خطيبه
انما نبتغي المعالي وكل	حسب السعي سوف يلقي نصيبه
شمسكم شمس وحده سوف تجلو	عن حماكم عما قريب كروبه
يا نسيماً يهب من سدة العليا	ء طوبى لمن يشم هبوبه
واذا الشعب رام أمراً عظيماً	ضم في السعي والنضال قلبه
أجمعوا أمركم وسيروا جميعاً	يلتق النازح البعيد قريبه
واجعلوا المجد للقلوب حبيباً	سيوافي المحب يوماً حبيبته
كم أشدنا من التراث بماضٍ	نتملى جماله وطيوبه
يا غريب الأوطان هل أن لك	وطن المسلوب أن يستعيد غريبه
قد رأينا من الزمان أعاجيب	ب وسلب الأوطان أدهى عجيبه
في أعالي الجنان من يدحر الطف	بيان عنه ويسترد سليبه
فاز من صان أهله وحماه	وتخطى من الزمان عصيبه

□ خاتمة :

كان سكان سورية العرب ينتظرون أن يعهد الحلفاء اليهم في ادارة أمورهم وفي استقلال بلادهم بعد جهادهم واعلان الشريف حسين في مكة الثورة على العثمانيين ووعود الحلفاء له باستقلال البلاد العربية كلها . كانت هذه الثورة أحد العوامل في جلاء العثمانيين عن سورية . وقد نودي بالشريف حسين ملكاً على البلاد العربية في ٥ تشرين الأول ١٩١٦ ولكن الدول الحليفة بريطانية وفرنسة وايطالية اعترفت بجلالته ملكاً على بلاد الحجاز .

وقاد الأمير فيصل المجاهدين العرب متمقبين القوات التركية حتى دمشق . ولما دخلها أعلن تأليف الحكومة العربية في سورية بصفته قائداً للجيش الشمالية وممثلاً لوالده الملك حسين .

بيد أن الحلفاء الذين كانوا يتربصون بالعثمانيين وبالعرب الدوائر نقضوا
عهودهم فأبرموا اتفاقية سايكس بيكو في ٢٦ أيار ١٩١٦ نسبة الى المفاوض
الانكليزي مارك سايكس والمفاوض الفرنسي جورج بيكو . شملت هذه الاتفاقية
كيليكية وسورية ومنها فلسطين والعراق . وقسمت هذه البلاد على خمس مناطق
ثلاث منها ساحلية واثنتان داخليتان . كانت الاتفاقية سرية حرص مكر الحلفاء
على كتمانها . وانكشف أمرها غيباً ثورة أكتوبر ١٩١٧ واذاعة هذه الثورة لها .
وفوجيء العرب أيضاً بوعد بلفور الصادر عن وزارة الخارجية البريطانية
في الثاني من تشرين الثاني عام ١٩١٧ أي بعد تعهدات بريطانية السابقة للملك
حسين باستقلال بلاد العرب ومنها فلسطين .

وقد أبقى منطقة كيليكية في حوزة تركية منذ نهاية الحرب وسارت سياسة
الحلفاء على نهجها الانتهازي الخادع المعتاد وأبرمت اتفاقية سان ريمو في
٢٤ نيسان ١٩٢٠ فأفضت الى وضع سورية ولبنان تحت انتداب فرنسة والى
وضع فلسطين والعراق تحت انتداب بريطانية . وذلك كله على الرغم من
مبادئ ولسون الشهيرة .

وجرت وقعة ميسلون في ٢٤ تموز ١٩٢٠ .

ولما استولت فرنسة على لبنان وسورية جعلت سياستها تختلف في كل من هذين
القطرين . فأصدر الجنرال غورو في ٣١ آب ١٩٢٠ مرسوماً خلق فيه دولة
لبنان الكبير اذ أضاف الى سنجق جبل لبنان طرابلس وبيروت وصيدا وصور
وبعلبك وسهل البقاع الخصيب ودخل في هذه الدولة ميناء بيروت وميناء
طرابلس وكانا منفذين تمر منهما تجارة سورية البحرية . ومع ذلك فقد جعلت
فرنسة سياستها تختلف في جبل لبنان نفسه عنها في جزئيه الجنوبي والشمالي حيث
الأكثرية اسلامية وحيث طغى الفقر والامية .

وفي سنة ١٩٢١ اقتطعت من فلسطين المنتدبة منطقة شرقي الأردن وولّي
عبدالله بن الحسين أميراً عليها . ثم نصب ملكاً عام ١٩٤٦ .

ثم عمد الفرنسيون الى تحطيم ما بقي من الوحدة التي كانت تنعم بها البلاد
بزعامه الملك فيصل فجزؤوها الى أربع حكومات منفصلة وهي :

- ١ - دولة سورية وعاصمتها دمشق وتشمل بقية المنطقة التي تحت الانتداب .
- ٢ - حكومة اللاذقية وعاصمتها اللاذقية وتشمل المنطقة الساحلية بين لبنان الكبير وسنجد الاسكندرونة .
- ٣ - دولة جبل الدروز وعاصمته السويداء ويشمل المنطقة الجبلية بين دمشق وشرقي الأردن .
- ٤ - سنجد الاسكندرونة وهو يدخل اسمياً في دولة سورية الا أنه منح ادارة ذاتية منفصلة (الحق بتركية عام ١٩٣٦) .

وقد كان لتجزئة وحدة هذه المناطق وتفاوت نوع الحكم فيها واختلاف شكل الاقتصاد وتباين أساليب التعليم آثار سيئة . وكان ذلك بداية لليل طويل من النضال والكفاح انتهى باستقلال أكثر أجزاء سورية الطبيعية وتقدمها . ولكن هذا الليل يرين على البلاد بسبب قيام اسرائيل وما نشأ عنه من اضطراب الأحوال غير الطبيعية في لبنان .

لقد بدأنا بحثنا بوحدة بلاد الشام وأنهيناها بهذه التجزئة المؤسفة التي جرّت اليها مطامع الاستعمار .

ومع ذلك ففي أوصال هذه المنطقة جميعها من قوة الحياة وشدة المراس ووثاقة الايمان وصلابة الارادة ما سوف يجعلها بنضالها الدائم وكفاحها الدائب تستأنف عاجلاً أو آجلاً خلاصها من الأزمات وتحررها التام وريقيها الطبيعي وازدهار العلم والتعليم فيها ويضمن لها حياة متعاونة انسانية كريمة .

□ المراجع :

حاضر اللغة العربية في الشام
معهد الدراسات العربية العالية ١٩٦٠ - ١٩٦٣
يقظة العرب ، تاريخ حركة العرب القومية ، بيروت، دار العلم
للملايين ، ١٩٦٢

الأفغاني ، سعيد

انطونيوس ، جورج
ترجمة د. ناصر الدين الأسد
د. احسان عباس

العرب والترك في العهد الدستوري العثماني ١٩٠٨ - ١٩١٤
جامعة الدول العربية ، معهد الدراسات العربية العالية ١٩٦٠

يرو ، توفيق علي

أسس التربية في الوطن العربي القاهرة دار مطابع الشعب، ١٩٦٥

الجمهورية العربية المتحدة ، المجلس
الأعلى لرعاية الفنون والآداب
والعلوم الاجتماعية

تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري جزءان
دمشق ، دار الفكر ، ١٩٧٦

تاريخ سورية ولبنان وفلسطين بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٨٢

البلاد العربية والدولة العثمانية ط ٣ بيروت ، دار العلم
للملايين ، ١٩٦٥

حولية الثقافة العربية السنة الاولى ، القاهرة ، مط لجنة التأليف
والترجمة والنشر ١٩٤٩

يوم ميسلون صفحة من تاريخ العرب الحديث ، بيروت مكتبة
الكشاف ، ١٩٤٧

كتاب منتخبات التواريخ لدمشق ، دمشق - المطبعة الحديثة ١٩٣٤
سورية والعهد العثماني ، دار النهار للنشر طبعة ثانية ١٩٨٠
سورية والعهد الفيصلي ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ،
١٩٦٤ ، ١٩٦٦

معجم البلدان
مجمع اللغة العربية بدمشق في خمسين عاماً ، دمشق مطبعة
الترقي ، ١٩٦٩

تاريخ سورية ، بيروت ، المطبعة العمومية ١٩٠٥

المشرق العربي في العهد العثماني ، دمشق ، مطابع مؤسسة
الوحدة ، ١٩٨٢

مشاركة المرأة في الحياة العامة في سورية منذ الاستقلال ١٩٤٥
حتى ١٩٧٥ دمشق ، وزارة الثقافة ١٩٧٥

العرب والتربية والحضارة دراسة في الفكر التربوي المقارن
الكويت ، مكتبة المنهل ، ١٩٧٩

تاريخ آداب اللغة العربية ، مصر ، مطبعة الهلال ١٩٣١

حاضر العالم الاسلامي ، القاهرة ، مط عيسى البابي الحلبي ،
١٣٥٢ هـ

تاريخ سورية جزءان ، دمشق ، دار طلاس ، ١٩٨٧

تركيا الكمالية ، بيروت ، مكتب الصحافة والنشر ، ١٩٣٨

تاريخ التربية الاسلامية وضعه بالانكليزية وترجمه الى العربية
بيروت ، دار الكشاف ، ١٩٥٤

على جناح الذكرى جزءان ، دمشق ، وزارة الثقافة ، ١٩٨٢

مستقبل التربية في الشرق العربي، دمشق مط جامعة دمشق، ١٩٦٢

حركة الاحياء اللغوي في بلاد الشام ، دمشق ١٩٧٦

تاريخ القدس ، دار المعارف بمصر ، (لاتا)

الحافظ ، محمد مطيع
أباطلة ، نزار
حتي ، فيليب
الحصري ، ساطع
الحصري ، ساطع
الحصري ، ساطع
الحصني ، محمد أديب آل تقي الدين
الحكيم ، يوسف
الحكيم ، يوسف
الحموي ، ياقوت
الخطيب ، عدنان
الدبس ، يوسف
رافق ، عبد الكريم
الرزاز ، نبيلة
رضا ، محمد جواد
زيدان ، جرجي
ستودارد ، لوتروب (المؤلف)
تويهض ، عجاج (المترجم)
الأمير شكيب أرسلان (المعلق)
سلطان ، علي
سنو ، سعيد
شليبي ، أحمد
صافي ، رضا
صليبا ، جميل
ظبيسان ، نشأة
المعارف ، عارف باشا

